سلسلة شروح الطريق (٥)

شرح
أصول العقائد الدينية

لفضيلة الشيخ / عبد الرحمن بن ناصر السعدي

فضيلة الشيخ الدكتور

عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين

خرج أحاديثه وعلق عليه وأعده للنشر






بسم الله الرحمن الرحيم

شرح

أُصُولُ العَقَائِدِ الدِّينِيَّة

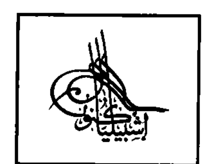
لفضيلة الشيخ / عبد الرحمن بن ناصر السعدي

ح دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع الرياض ١٤٢٩هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الجبرين، عبدالله بن عبدالرحمن
شرح أصول العقائد الدينية للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله./ عبدالله بن عبدالرحمن الجبرين؛ طارق بن محمد الخويطر؛ الرياض ١٤٢٩هـ.
٢١٠ صفحة ١٧×٢٤
ردمك: ٨-١٣١٢-٠٠-٦٠٣-٩٧٨
١- العقيدة الإسلامية أ- الخويطر، طارق بن محمد (محقق)
ب - العنوان
ديوي ٢٤٠ ١٤٢٩/٥٤٤٣

رقم الإيداع: ١٤٢٩/٥٤٤٣هـ
ردمك: ٨-١٣١٢-٠٠-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية ص-ب ٢٧٢٦١ الرياض ١١٤١٧
هاتف: ٤٧٤٢٤٥٨–٤٧٧٣٩٥٩ – ٤٧٩٤٣٥٤ فاكس: ٤٧٨٧١٤٠
E-mail: eshbelia@hotmail.com



تقديم المحقق

الحمد لله القائل: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، والصلاة والسلام على نبينا محمد القائل: (**مَنْ يُرِدْ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**)[1]، وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فإن أفضل ما صرفت فيه الأوقات، وبذلت فيه الأموال، وتعبت في طلبه الأجسام: العلم الشرعي تعلماً وتعليماً، وما ذاك إلا لأن الله جل وعلا رفع شأن العلماء، فقال جل شأنه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

قال ابن كثير: «أي إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به؛ لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال، المنعوت بالأسماء الحسنى، كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر»[2].

ويكفي العلماء فخراً أن الله جل وعلا استشهد بهم على أجل مشهود عليه وهو توحيده، فقال عز من قائل: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨].

وأخبر النبي ﷺ بفضل العلم والعلماء فقال: (**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رضىً لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْمَاءِ، وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، إِنَّ**

---

(١) أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

(٢) تفسير ابن كثير ٣/٥٥٣.

الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»[1].

والأحاديث في ذلك كثيرة مشهورة.

وإن أمة كثر فيها أولئك العلماء البررة لجديرة أن تصافحها يد السعادة والهناء والعز والإباء. وإذا عرف المسلم فضل العلم والعلماء وعظم منزلتهم وسمو مكانتهم حرص أن يكون قريباً منهم، لينهل من علمهم وأخلاقهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فالعلماء نجوم في السماء مضيئة، متى أفلت ضل السائرون، ونور في الطرقات المظلمة، متى انطفأ تعثر المارون.

ومن هؤلاء العلماء الأبرار والأولياء الأخيار شيخنا الحفي الوفي الزكي عبدالله بن عبدالرحمن الجبرين حفظه الله ورعاه، وجعل الجنة مثوانا ومثواه، فهو من العلماء الذين صاروا بحمد الله أئمة، ومناراً للعلم فهماً، وعلماً للحق، ونوراً يستضاء بهم، وهو ممن اتصلت محامدهم، وعلت مبانيهم، وجمت مكارمهم، فجرد في العلم العناية، وأظهر فيه الكفاية، وصرف إليه اهتمامه، وأوضح للناس ما التبس عليهم فهمه واشتبه، ولذا حرص الكثير من طلبة العلم على ملازمته، وحضور دروسه، وسماع محاضراته وكلماته، فاستفادوا من علمه وخلقه الشيء الكثير، فهو أريحي كريم، رزقه الله تعالى منطقاً سهلاً، وأدباً جزلاً، فأكرم به مورد فضل، ما برح منهله العذب كثير الزحام، وكنت ممن تتلمذ عليه وقت الدراسة النظامية في المعهد العالي للقضاء، ثم تشرفت بحضور بعض دروسه ومحاضراته وخطبه وسماع فتاويه، فانتفعت

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٤١) والترمذي (٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣).

بحمد الله من ذلك كثيراً، فمازالت شروحه تسرُّ خواطرنا، وتشنِّف أسماعنا، وقبل ذلك استفدت من سمته وخلقه وسماحته، فهو طاهر الثوب، محمود الفؤاد، طاهر الوداد.

ولما كان شيخنا معطاءً فياضاً في العلم، لا يطلب منه محاضرة أو كلمة داخل الرياض أو خارجها إلا وافق بنفس رضية، رجوته أن أتشرف بصحبته في بعضها، إذ هو مبارك الصحبة، محمود الشيم، حميد السجايا، فوافق مدعواً له بالتوفيق والسداد، وكنت في طريقنا إلى المحاضرة أعرض عليه ما أشكل علي من كلام بعض أهل العلم، وأحياناً أعرض عليه بعض الأسئلة، فيتفضل بالإجابة والتوضيح والشرح، فيزول ما التبس عليّ فهمه، ثم عرضت عليه مع طول الطريق في بعض المحاضرات داخل الرياض والسفر في بعضها الآخر أن أقرأ عليه شيئاً من متون العلم ويشرحه، فوافق جزاه الله خير الجزاء، فلله دره ما أرحب صدره، وأكثر صنائعه، وبدأت بالقراءة عليه تارة في السيارة، وتارة في الطائرة، وأحياناً في السكن خارج الرياض، وكان حفظه الله وأدام بركته علينا يشرح ارتجالاً، وبدون سابق تحضير واستعداد، حتى أتممنا بحمد الله وفضله ومنته تسجيل شرح هذه المتون. ثم فرغت هذه الأشرطة وعرضتها على سماحته فكتب لها مقدمات، واقترحت أن تسمى هذه الشروح «سلسلة شروح الطريق»، إذ كما ذكرت كان شرحها في الطريق حضراً وسفراً، فوافق نفعنا الله بعلمه على هذا الاسم.

وكان قصدي من هذه التسمية أن يعلم القارئ أن الشيخ متعنا الله بصحته كان يشرح ارتجالاً من ذاكرته، ومما حفظه قديماً، ومع ذلك زادت بعض شروح المتون على مائة وتسعين صفحة كهذا الشرح، ولو استعد الشيخ للشرح لرأى

القارئ أضعاف هذا العدد، ولكن حال دون تحضير الشيخ واستعداده مشاغله الكثيرة، وأعباؤه الجسيمة، ومحاضراته، وندواته، وأحاديثه، وكلماته في المساجد والمناسبات، وبعض المجلات، ودوراته العلمية في مناطق كثيرة، وفتح بابه للناس لقضاء حوائجهم، ودروسه اليومية الصباحية والمسائية، فلا عجب أن كان حفظه الله قريع دهره، وكوكب نظرائه، ولو استمع القارئ إلى أشرطة هذه الشروح وهي موجودة لرأى كيف ينقطع شرح الشيخ بضجيج بعض السيارات، وأحياناً بصوت ملاحي الطائرة وهم ينبهون الركاب على بعض الأمور، ومع ذلك كان شيخنا أدام الله نفعه يتوقف أحياناً ويكمل من حيث توقف، ورغم طول مدة التوقف أحياناً إلا أن السامع لا يحس بانقطاع في الشرح، ولا يشعر باختلاف في الصياغة أو تكرار في العبارة ونحو ذلك.

أسأل المولى جل وعلا أن يعلي أبداً شأنه، ويرفع فوق الفرقدين مكانه، إذ بأمثاله أخمد الله شهاب الباطل، وأنار بهم سبيل الحق، كما أسأله سبحانه أن يديم علينا بركته، وأن يمتعنا بسلامته وصحته، وأن يبلغه الرتب الجليلة، والمحال النفيسة، إنه ولي ذلك والقادر عليه. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه

طارق بن محمد بن عبد الله الخويطر

ص ب ٢٦٥٣٥

الرياض ١١٤٩٦

تقديم الشيخ الدكتور عبدالله بن عبدالرحمن بن جبرين

الحمد لله رب العالمين، قيوم السموات والأرضين، مدبر الخلائق أجمعين، فتح باب للطالبين، وحث على دعائه في كتابه المبين، وبعث الرسل مبشرين ومنذرين، وختمهم بمحمد ﷺ فهو خاتم النبيين والمرسلين، وعم برسالته إلى جميع العالمين، وضمنها جميع المصالح في كل وقت وحين، نحمده سبحانه ونشكره، وقد وعد بالزيادة للشاكرين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إله الأولين والآخرين، تعالى عن الشريك والظهير والمعين، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الصادق الأمين، والمبعوث رحمة للعالمين، ﷺ وعلى جميع آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، ومن سار على نهجهم، واتبع هديهم إلى يوم الدين. أما بعد:

فإن ربنا سبحان وتعالى قد خلق المخلوقات، وتفرد بإيجاد الموجودات، وجعل منها ما فيه حركة وحياة، وروح ينمو ويتغذى، ويتقلب في هذه الدنيا، إلى أن يصل إلى الأجل المحدد له، فينتقل من الدنيا، ويخلفه مثله، ومنها ما لا روح فيه، ولكن فيه حياة معنوية ينمو بها، ويحتاج إلى غذاء، يتوقف عليه نموه وحياته، وجعل منها نوعاً ثالثاً ليس فيه حياة ولا حركه ولا روح، وإنما هو باق على ما خلق عليه من أول الدنيا إلى آخرها، وأفضل الأنواع الثلاثة هو النوع الأول، وهو الذي فيه روح وحياة وإحساس، ويدخل فيه ما هو مكلف بالأوامر والنواهي، والطاعة والامتثال والعصيان، وأفضل هذا الجنس هو الإنسان، الذي خلقه الله تعالى، ومنّ عليه سبحانه، وميزه بالعقل والإحساس والتمييز، وأنطق من اللسان، وكمل له الأركان، وسخر له كل ما في هذا

الكون من جماد وحيوان، وأمره بالتفكر والاعتبار، والنظر في آيات ربه، التي هي من أعظم الدلالات، وأوضح الآيات، على عظمة الرب سبحانه وجلاله، وقدرته، واستحقاقه للعبادة، ولإخلاص الدين كله له، وأقرب الأدلة، وأشهرها أن يتفكر في نفسه، وعجيب خلقه، فقد قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [سورة التين: ٤]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [سورة الانفطار: ٧-٨].

ولا شك أنَّ من أعمل عقله وفكره في نشأته وخلقه، ومبدئه ونهايته، اعتبر وتذكر، وهكذا إذا تفكر في ما يشاهده من الحيوانات الصغيرة والكبيرة، فمن أكبرها خلق الفيل والزرافة والنعام، وأقربها هذه الإبل، التي يشاهدها كثيراً، فقد أمر ربه أن يتفكر فيها، بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [سورة الغاشية: ١٧]. فإن خلقها عجيب، وتركيبها غريب، وهكذا كيف سخرها للإنسان لحاجته إلى مثلها، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ۝ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [سورة يس: ٧١-٧٢].

وهكذا لو نظر في أصغر المخلوقات كالذرة، والنملة، والبعوضة وما أشبهها؛ لرأى فيها من خلق أعضائها، وتركيب قوائمها، وما في جوفها من الأمعاء، والأعضاء الداخلية؛ التي تميز بها، وتتغذى بها؛ لرأى في ذلك أعجب العجائب، وما فيه عبرة لأولى الألباب.

وهكذا لو تفكر في الجمادات وبقية المخلوقات، وما في الأرض من النباتات والأرزاق لجميع الحيونات، من الطيور، والنسور، والصقور، وسائر الحشرات، ففيها عبرة للمعتبرين، وتذكرة للمتفكرين.

وقد أمر الله العباد المكلفين أن يتفكروا فيما حولهم من جميع الموجودات، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]. ومع هذه الآيات، والدلالات الواضحة، يغلب على أكثر الناس الجهل والعناد، والمكابرة والعصيان، وهؤلاء هم الذين لم ينتفعوا بما أعطاهم الله تعالى من أسباب التفكير والاعتبار، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [سورة الأعراف: ١٧٩].

ومع هذه الآيات والدلالات، فإن الله سبحانه قد أرسل الرسل مبشرين ومنذرين، وأنزل الكتب فيها الحق الواضح المبين، وقد بلغ الرسل ما أمروا به، وأنذروا، وحذروا، وأوضحوا الأحكام، وبينوا الحلال والحرام، وقد قال الله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

ومع هذه الأدلة والآيات، ومع إرسال الرسل، وإنزال الكتب، فإن الكثير من الناس كفروا وكذبوا الرسل، ولم يتذكروا، ولم يتفكروا في أنفسهم، وما بين أيديهم وما خلفهم، وأشركوا بالله تعالى ما لم ينزل به سلطاناً، وصرفوا حق الله تعالى لغيره، وذلك لأن من حكمة الله تعالى أن سلط عليهم أعداء ألداء، يصدونهم عن الهدى، ويدعونهم إلى الردى، ويزينون لهم الركون إلى الدنيا وزينتها، حتى نسوا خلقهم وخالقهم، فقد سلط الله عليهم الشيطان الرجيم، وهو الوسواس الخناس، الذي يوسوس في صدور الناس، والذي عصى ربه حيث أمر بالسجود لآدم، وقال: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [سورة ص: ٧٦]. وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة سبأ: ٢٠].

وهكذا انخدع كثير من الناس بزينة الدنيا وزهرتها، وأكبوا عليها، وعظموا شأنها، وغفلوا عن الموت وما بعده، واتبعوا الهوى وما تميل إليه أنفسهم، ولذلك فإن أهل النجاة قليل، كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[سورة سبأ: ١٣].

وأخبر النبي ﷺ: **(أن أهل الجنة من البشر واحد من كل ألف، والبقية في النار)**[1]، وحيث إن أهم ما يعالج في المجتمعات هو أصل الإسلام والإيمان، وذلك لأن الخلاف فيه كثير، لذلك اهتم علماء أهل السنة والجماعة بذلك، وبينوا ما عرفوه من الحق والدين، وذلك عند ما كثر الانحراف في أمر الاعتقاد، وتنوعت البدع والمحدثات، فظهر الذين ينكرون صفات الرب، ودلالة أسمائه الحسنى على المعاني التي وضعت لها في اللغة، وما يفهمه أهل السنة، وأهل اللغة، وأهل الإيمان، وظهر أيضاً من ينكر البعث والنشور، أو لا يؤمن بما في يوم الحشر من الأمور التي أخبر الله عنها مفصلة، كإحياء الأموات، ورجوع الأرواح إلى الأجساد، أو مافي الموقف من الحساب والجزاء والحوض والميزان، والصراط ونحو ذلك، وظهر وانتشر من يغلب جانب الرجاء، وينكر أحاديث الوعيد على كبائر الذنوب، ويرخص في المعاصي والذنوب، وظهر أيضاً من ينكر قدرة الله تعالى على كل شيء، وادعى أن الله لا يعلم الغيب، ولا ما يكون في المستقبل، ولا ما يقع فيه من الأمور، أو يقع من الحوادث قبل حدوثها، وزعم أن الله لا يقدر أن يهدي من يشاء، ولا يضل من يشاء، ونحو ذلك من البدع والمحدثات، والمكفرات.

ولقد وفق الله العلماء من أهل السنة والجماعة، وأهل الحديث وأهل العقيدة السليمة، فتصدوا لبيان السنة، والعقيدة الصحيحة وردوا شبه المبطلين، وحذروا

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٨)، ومسلم (٢٢٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

من جميع البدع والمحدثات في الدين، وأكثروا من التأليف فيما يتعلق بالتوحيد والإيمان، وما يجب أن يعقد عليه القلب، واعتمدوا الأدلة الصحيحة من الكتاب المبين، والقرآن الكريم، ومن السنة الصحيحة الثابتة عن سيد المرسلين، والتي اعتمدها الصحابة رضي الله عنهم، والتابعون لهم بإحسان، وأئمة المسلمين المشهورين، وذلك عندما انتشرت البدع في آخر القرن الثاني، وفي القرن الثالث، وما بعده، وتمكنت عقيدة المعتزلة الزائغة والجهمية، والمعطلة، ومن قرب منهم كالأشاعرة، والماتريدية، والرافضة، والكرامية ونحوهم، ومع ذلك فإن تلك البدع قد انخدع بها الخلق الكثير، وانتحلها الجم الغفير، ولكن لا يزال والحمد لله تعالى هناك بقايا في كل زمان، كما جاء في الحديث: **(يحمل هذا العلم من كل خلف عدو له، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين)**[1]، ومن أشهرهم في القرن السابع والثامن شيخ الإسلام، وعلم الهداة الأعلام، أبو العباس أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية، رحمه الله وأكرم مثواه، فقد أحيا الله به السنة، وقمع به البدع، وأنكر على المبتدعة، وجادلهم، وناظرهم، وظهر عليهم بالحجة والبيان لا بالسيف والسنان، وقد تبعه تلامذة له محققون، نهجوا نهجه، وأوضحوا العقيدة السليمة، والتي كان عليها سلف الأمة وأئمتها، رغم كثرة المبتدعة، وتنوع المخالفين ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [سورة الأنعام: ١٤٩].

وكان من العلماء المتأخرين من أهل السنة والجماعة الشيخ عبدالرحمن بن ناصر بن سعدي رحمه الله تعالى، وقد كتب في العقيدة والأحكام الكثير من

---

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل ١٤٦/١، وابن عبدالبر في التمهيد ٥٩/١ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وانظر الكلام على الحديث في فتح المغيث ١٤/٢، ومفتاح دار السعادة ٢٣١/١.

المؤلفات الكبيرة والصغيرة، وحيث إن له شهرة ومكانة في القلوب، فقد انتشرت مؤلفاته، وتلقتها الأمة بالقبول، ونفع الله بها وحرص الكثير على نشرها، والترغيب في الاستفادة منها، لما فيها من البيان والوضوح ولما عرف عنه من النصح والإخلاص، ولما عرف عنه من الغزارة في العلم، والتعمق في الفهم، وكان من جملة رسائله رسالة صغيرة، كتبها بعنوان (أصول العقائد الدينية) ذكر أنه اختصرها، واقتصر على أهم المسائل العقدية، وقد رغب إلي الشيخ الدكتور طارق بن محمد بن عبدالله الخويطر، أن أشرحها، فوافقت على ذلك، مع اعترافي بالقصور، فالإنسان محل النسيان، وقد كرَّ سني، وضعف حفظي، ونسيت كثيراً مما أحفظ، ولم أتمكن من مراجعة الشروح التي تتوسع في بيان هذه الأمور، فما كان في هذا الشرح صواباً فهو من فضل الله وجوده، والخطأ واقع في البشر، والإنسان محل النسيان، ونأمل من القارئ أن يصلح ما يلاحظه، ويجزم فيه بالمخالفة، وأستغفر الله تعالى، وأتوب إليه، والله أعلم وأحكم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

وكتبه

عبدالله بن عبدالرحمن بن جبرين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، قيوم السموات والأرضين، مدبر الخلائق أجمعين، فتح بابه للطالبين، وحث على دعائه في كتابه المبين، وبعث الرسل مبشرين ومنذرين، وختمهم بمحمد صلى الله عليه وسلم فهو خاتم النبيين والمرسلين، وعمم برسالته إلى جميع العالمين، وضمنها جميع المصالح في كل وقت وحين، نحمده سبحانه ونشكره وقد وعد بالزيادة للشاكرين، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إله الأولين والآخرين، تعالى عن الشريك والظهير والمعين، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الصادق الأمين، والمبعوث رحمة للعالمين صلى الله عليه وسلم وعلى جميع آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، ومن سار على نهجهم واتبع هديهم إلى يوم الدين.

أما بعد فإن ربنا سبحانه وتعالى قد خلق المخلوقات وتفرد بإيجاد الموجودات، وجعل منها ما فيه حركة وحياة وروح ينمو ويتغذى ويتقلب في هذه الدنيا إلى أن يصل إلى الأجل المحدد له فينتقل من الدنيا ويخلفه مثله، ومنها ما لا روح فيه ولكن فيه حياة معنوية ينمو بها ويحتاج إلى غذاء يتوقف عليه نموه وحياته، وجعل منها نوعاً ثالثاً ليس فيه حياة ولا حركة ولا روح وإنما هو باق على ما خلق عليه من أول الدنيا إلى آخرها، وأفضل الأنواع الثلاثة هو النوع الأول وهو الذي فيه روح وحياة وإحساس، ويدخل فيه ما هو مكلف بالأوامر والنواهي والطاعة والامتثال والعصيان، وأفضل هذا الجنس هو الإنسان الذي خلقه الله تعالى ومنّ عليه سبحانه وميزه بالعقل والإحساس والتمييز، وأنطق منه اللسان، وكمل له الأركان، وسخر له كل ما في هذا الكون من جماد وحيوان، وأمره بالتفكر والاعتبار والنظر في آيات ربه التي هي من أعظم الدلالات، وأوضح الآيات على عظمة الرب سبحانه وجلاله وقدرته واستحقاقه للعبادة، ولإخلاص الدين كله له، وأقرب الأدلة وأشهرها أن يتفكر في نفسه وعجيب خلقه، فقد قال الله تعالى (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم) وقال تعالى (الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك) ولا شك أنه متى أعمل عقله وفكره في نشأته وخلقه ومبدئه ونهايته اعتبر وتذكر، وهكذا إذا تفكر في ما يشاهده من الحيوانات الصغيرة والكبيرة، فمن أكبرها خلق الفيل والزرافة والنعام، وأقربها هذه الإبل التي يشاهدها كثيراً، فقد أمره ربه أن يتفكر فيها بقوله تعالى (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت) فإن خلقها عجيب وتركيبها غريب، وهكذا كيف سخرها للإنسان لحاجته إلى مثلها، فقال تعالى (أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون) وهكذا لو نظر في أصغر المخلوقات كالذرة والنملة والبعوضة وما

أسنمها لرأى فيها من خلق أعضائها وتركيب قوائمها وما في جوفها من الأمعاء والأعضاء الداخلية التي تميز بها وتتغذى بها لرأى في ذلك أعجب العجائب وما فيه عبرة لأولي الألباب وهكذا لو تفكر في الجمادات وبقية المخلوقات وما في الأرض من النباتات والأرزاق لجميع الحيوانات من الطيور والنسور والصقور وسائر الحشرات ففيها عبرة للمعتبرين وتذكرة للمتفكرين وقد أمر الله العباد المكلفين أن يتفكروا فيما حولهم من جميع الموجودات كقوله تعالى (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب) ومع هذه الآيات والدلالات الواضحة يغلب على أكثر الناس الجهل والعناد والمكابرة والعصيان وهؤلاء هم الذين لم ينتفعوا بما أعطاهم الله تعالى من أسباب التفكر والاعتبار وقد قال الله تعالى (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) ومع هذه الآيات والدلالات فإن الله سبحانه قد أرسل الرسل مبشرين ومنذرين وأنزل الكتب فيها الحق الواضح المبين وقد بلغ الرسل ما أمروا به وأنذروا وحذروا وأمروا ونهوا الأحكام وبينوا الحلال والحرام وقد قال الله تعالى (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) ومع هذه الأدلة والآيات ومع إرسال الرسل وإنزال الكتب فإن الكثير من الناس كفروا وكذبوا الرسل ولم يتذكروا ولم يتفكروا في أنفسهم وما بين أيديهم وما خلفهم وأشركوا بالله تعالى ما لم ينزل به سلطانا وصرفوا حق الله تعالى لغيره وذلك لأن من حكمة الله تعالى أن سلط عليهم أعداء ألداء يصدونهم عن الهدى ويدعونهم إلى الردى ويزينون لهم الركون إلى الدنيا وزينتها حتى نسوا خلقهم وخالقهم فقد سلط الله عليهم الشيطان الرجيم وهو الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس وهو الذي عصى ربه حيث أمره بالسجود لآدم وقال (أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين) وقال الله تعالى (ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين) وهكذا انخدع كثير من الناس بزينة الدنيا وزهرتها وأكبوا عليها وعظموا شأنها وغفلوا عن الموت وما بعده واتبعوا الهوى وما تميل إليه أنفسهم ولذلك فإن أهل النجاة قليل كما قال الله تعالى (وقليل من عبادي الشكور) وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن أهل الجنة من البشر واحد من كل ألف والبقية في النار وحيث أن أهم ما يعالج في المجتمعات هو أصل الإسلام والإيمان وذلك لأن الخلاف فيه كثير لذلك اهتم علماء أهل السنة والجماعة بذلك وبينوا ما عرفوه من الحق والدين وذلك عند ما كثر الانحراف في أمر الاعتقاد وتنوعت البدع والمحدثات

فظهر الذين ينكرون صفات الرب، ودلالة أسمائه الحسنى على المعاني التي وضعت لها في اللغة، وما يفهمه أهل السنة وأهل اللغة وأهل الإيمان، وظهر أيضا من ينكر البعث والنشور، أو لا يؤمن بما في يوم الحشر من الأمور التي أخبر الله عنها مفصلة كإحياء الأموات ورجوع الأرواح إلى الأجساد، أو ما في الموقف من الحساب والجزاء والحوض والميزان والصراط ونحو ذلك، وظهر وانتشر من يغلب جانب الرجاء، وينكر أحاديث الوعيد على كبائر الذنوب، ويرخص في المعاصي والذنوب، وظهر أيضا من ينكر قدرة الله تعالى على كل شيء، وادعى أنه لا يعلم الغيب، ولا ما يكون في المستقبل، ولا ما يقع من الأمور أو يقع من الحوادث قبل حدوثها، وزعم أن الله لا يقدر أن يهدي من يشاء، ولا أن يضل من يشاء، ونحو ذلك من البدع والمحدثات والمنكرات، ولقد وفق الله العلماء من أهل السنة والجماعة وأهل الحديث وأهل العقيدة السليمة، فتصدوا لبيان السنة والعقيدة الصحيحة، وردوا شبه المبطلين، وحذروا من جميع البدع والمحدثات في الدين، وأكثروا من التآليف فيما يتعلق بالتوحيد والإيمان، وما يجب أن يعتقد عليه القلب، واعتمدوا الأدلة الصحيحة من الكتاب المبين والقرآن الكريم ومن السنة الصحيحة الثابتة عن سيد المرسلين، والتي اعتمدها الصحابة، والتابعون لهم بإحسان، وأئمة المسلمين المشهورين، وذلك عندما انتشرت البدع في آخر القرن الثاني، وفي القرن الثالث، وما بعده، وتمكنت عقيدة المعتزلة الزائغة والجهمية والمعطلة، ومن قرب منهم كالأشاعرة والماتريدية والرافضة والكرامية ونحوهم، ومع ذلك فإن تلك البدع قد انخدع بها الخلق الكثير، وانتحلها الجم الغفير، ولكن لا يزال والحمد لله تعالى هناك بقايا في كل زمان يحملون هذا الدين، وينفون عنه تحريف الغالين، وتأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين، ومن أشهرهم في القرن السابع والثامن شيخ الإسلام، وعلم الهداة الأعلام، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية رحمه الله وأكرم مثواه، فلقد أحيا الله به السنة، وقمع به البدع، وأنكر على المبتدعة، وجادلهم وناظرهم، وظهر عليهم بالحجة والبيان، لا بالسيف والسنان، وقد تبعه تلامذة له محققون، نهجوا نهجه، وأوضحوا العقيدة السليمة، والتي كان عليها سلف الأمة وأئمتها، رغم كثرة المبتدعة وتنوع المخالفين (فلله الحجة البالغة) وكان من العلماء المتأخرين من أهل السنة والجماعة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي رحمه الله تعالى، وقد كتب في العقيدة والأحكام الكثير من المؤلفات الكبيرة والصغيرة، وحيث إن له شهرة ومكانة في القلوب، فقد انتشرت مؤلفاته، وتلقتها الأمة بالقبول، ونفع الله بها، وحرص الكثير على نشرها والترغيب في الاستفادة منها، لما فيها من البيان والوضوح، ولما عرف عنه من النصح والإخلاص، ولما عرف عنه من الغزارة في العلم، والتعمق في الفهم،

وكان من جملة رسائله رسالة صغيرة كتبها بعنوان (أصول العقائد الدينية) ذكر أنه اختصرها واقتصر على أهم المسائل العقدية، وقد رغب إلي الشيخ الدكتور طارق بن محمد بن عبد الله الخويطر أن أشرحها، فوافقت على ذلك مع اعترافي بالقصور، فالإنسان محل النسيان، وقد كبر سني، وضعف حفظي، ونسيت كثيرا مما أحفظ، ولم أتمكن من مراجعة الشروح التي تتوسع في بيان هذه الأمور، فما كان في هذا الشرح صوابا فهو من فضل الله وجوده، والخطأ واقع في البشر، والإنسان محل النسيان، وآمل من القارئ أن يصلح ما يلاحظه ويجزم فيه بالخطأ، وأستغفر الله تعالى وأتوب إليه، والله أعلم وأحكم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله الجبرين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ...

فَهَذَا مُخْتَصَرٌ جِدًّا فِي أُصُولِ الْعَقَائِدِ الدِّينِيَّةِ، وَالأُصُولِ الْكَبِيرَةِ الْمُهِمَّةِ، اقْتَصَرْنَا فِيهَا عَلَى مُجَرَّدِ الإِشَارَةِ وَالتَّنْبِيهِ، مِنْ غَيْرِ بَسْطٍ لِلْكَلامِ وَلا ذِكْرِ أَدِلَّتِهَا، أَقْرَبُ مَا يَكُونُ لَهَا أَنَّهَا مِنْ نَوْعِ الْفِهْرِسْتِ لِلْمَسَائِلِ؛ لِتُعْرَفَ أُصُولُهَا وَمَقَامُهَا وَمَحَلُّهَا مِنَ الدِّينِ.

ثُمَّ مَنْ لَهُ رَغْبَةٌ فِي الْعِلْمِ يَتَطَلَّبُ بَسْطَهَا وَبَرَاهِينَهَا مِنْ أَمَاكِنِهَا، وَإِنْ يَسَّرَ اللهُ، وَفَسَحَ فِي الأَجَلِ، بَسَطتُ هَذِهِ الْمَطَالِبَ وَوَضَّحْتُهَا بِأَدِلَّتِهَا.

الشرح:

بدأ المؤلف -رَحِمَهُ اللَّهُ- هذه الرسالة بالحمد كعادة المؤلفين، فقال: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلى يَوْمِ الدِّينِ»، فابتدأ بالبسملة اقتداء بكتاب الله سبحانه وتعالى، وعملاً بالحديث المروي في ذلك: **(كُلُّ أَمْرٍ ذي بَالٍ لاَ يبدأ ببسم الله الرحمن الرحيم - فَهُوَ أَقْطَعُ)**[1]، وفي رواية: **(لا يفتح بذكر الله عز وجل فهو أبتر)**[2] والمعنى: أنه قليل البركة[3].

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي ٢/ ٦٩ من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٣٥٩ من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) شرح النووي على مسلم ١/ ٤٣.

ابتدأ الله تعالى بها في كتبه فذكرت في أوائل السور، إلا سورة (براءة)، وذُكرت في وسط سورة (النمل) في كتاب سليمان ـ عليه السلام ـ إلى ملكة سبأ.

وقد أطال العلماء في تفسيرها في كتب التفسير والعقائد وما أشبهها، وهي واضحة والحمد لله.

قوله - رَحِمَهُ اللَّهُ - : «الْحَمْدُ للهِ»، ابتدأ بعد البسملة بالحمد؛ لأنه أيضًا رُوي في ذلك الحديث: **(كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لا يُبْدَأُ فِيهِ بِحَمْدِ اللَّهِ فَهُوَ أَقْطَعُ)**.[1]

وفي رواية: **(كل كلام لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم)**[2].

واتبعها بالصلاة والسلام على النبي ﷺ، فقد رُوي أيضًا فيها بعض الأحاديث: وتوسع في تخريجها الشوكاني -رَحِمَهُ اللَّهُ- في مقدمة كتابه (نيل الأوطار)، وذكر روايات الحمد وروايات الصلاة على النبي ﷺ.

ذكر العلماء تعريف الحمد بأنه: ذكر محاسن المحمود، مع حبه وتعظيمه وإجلاله، فالحمد لله هو ذكر محاسن الرب سبحانه وتعالى، وفضائله، وآلائه ونعمه، وكذلك ذكر أسمائه وصفاته التي اتصف بها، والتي هي صفات

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (١٠٢٥٥)، وابن ماجه (١٨٩٤)، وابن حبان ١/ ١٧٣، والبيهقي ٣/ ٢٠٨ من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٤٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه الطبراني في الكبير (١٤٠١) من حديث كعب بن مالك. قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١/ ٤٣): قال النبي ﷺ: **(كل أمر ذي بال لا يبدأ بالحمد لله فهذا أقطع)**، وفي رواية: **(بحمد لله)**، وفي رواية: **(بالحمد فهو أقطع)**، وفي رواية: **(أجذم)**، وفي رواية: **(لا يبدأ فيه بذكر الله)** وفي رواية: **(ببسم الله الرحمن الرحيم)** روينا كل هذه في كتاب الأربعين للحافظ عبدالقادر الرهاوي سماعاً من صاحبه الشيخ أبي محمد عبدالرحمن بن سالم الأنباري عنه.

كمال، ويكون الذي يحمده يحبه ويقدم محبته على كل شيء، على كل مخلوق، وكذلك يعظم الرب بهذا الحمد وبغيره من أنواع الثناء على الله، وكذلك يعتقد جلال الله تعالى وكبرياءه، فيجمع بين ذلك كله.

وعرَّف الحمد آخرون بأنه: فعل ينبئ عن تعظيم المنعم، بسبب كونه منعمًا على الحامد وغيره، وهذا فيما إذا ذُكر بلفظ الفعل (أحمد الله) أو (نحمد الله) أو (احمد الله) ونحو ذلك، فيكون فعلاً يدل على تعظيم المنعم، يُحمد الرب؛ لإنعامه على عباده؛ لكونه منعمًا على العبد الحامد الذي يحمد ربه، وعلى غيره من الخلق، فهو سبحانه يُحمد لإنعامه، وكذلك أيضًا يُحمد على كل شيء، يحمد على خيره، ويحمد على ابتلائه؛ لأن ذلك كله لا يكون إلا لحكمة فهو حكيم في أمره ونهيه، وحكيم في وعده ووعيده، فيحمد على ذلك كله.

قوله - رحمه الله -: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، يوصف الله بأنه رب العالمين، كما في أول سورة (الفاتحة): ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وكما ذُكر في أهل الجنة قال تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[يونس: ١٠]، والرب هو: المربي، أي: الذي رباهم بنعمه، وقد تسند التربية إلى الوالدين كقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾[الإسراء: ٢٤]، ولكن التربية الحقيقة لله عز وجل، فهو الذي أنعم على عباده، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، فله الحمد على ذلك. وهو ربهم الذي هو مالكهم وخالقهم، ومدبر أمورهم، والمتصرف فيهم كما يشاء، فيُحمد على ذلك كله.

و﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: الخلق كلهم، ويدخل في العالمين كل البشر، والجن، والإنس، والشياطين، والملائكة، وتدخل في ذلك أيضًا بهيمة الأنعام ثمانية

أزواج من الأنعام، وكذلك بقية البهائم، وكذلك الطيور صغيرها وكبيرها، من الناموسة إلى النعامة، وهكذا أيضًا الحشرات كلها من الذرة فما فوقها، كل هؤلاء من العالمين، وسموا بذلك لأنهم علامة على قدرة الخالق، فإن من تأمل أي مخلوق من هذه المخلوقات، علم بذلك قدرة الرب سبحانه على كل شيء.

فكل مخلوق فيه علامة على قدرة خالقه؛ كما قال بعض الشعراء:

فيا عجباً كيف يُعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

ولله في كل تحريكة وفي كل تسكينة شاهد

أنشد ذلك ابن كثير في أول تفسيره عند قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [البقرة: ٢١].

قوله -رحمه الله-: «وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى مُحَمَّدٍ»، بعد الحمد ذكر الصلاة والسلام على محمد، والصلاة في اللغة: الدعاء، قال الله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ﴾ [التوبة: ١٠٣]، أي: ادع لهم، والصلاة من الله تعالى ثناؤه على عبده في الملأ الأعلى، والسلام: دعاء من الخلق لتسليم المسلم عليه من كل الآفات، ومن كل المحظورات، وما أشبه ذلك، وقد أمرنا الله بأن نصلي ونسلم على النبي ﷺ بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، وحيث أمرنا بأن نصلي عليه ظهر منا العجز عن ذلك، وطلبنا من الرب سبحانه أن يصلي عليه، فهو الذي يتولى ذلك سبحانه، فقلنا: صلى الله عليه، اللهم صل عليه، وإن كان المطلوب منا أن نصلي عليه نحن فنقول: عليك الصلاة، عليك السلام، أو ندعو له، كما يُدعى لغيره من المخلوقات بالمغفرة والرحمة والثناء، والجزاء الأوفى الذي هو أهل له.

(مُحَمَّدٍ)، محمد علم ظاهر على النبيّ محمد ﷺ، سُمِّي به لكثرة خصاله الحميدة، ذكر ابن الهائم أنه سُمي به قبله سبعة عشر، فهو ﷺ محمود لخصاله الحميدة، قال بعض الشعراء:

وشـق لـه مـن اسمـه ليجلـه فـذو العـرش محمـود وهـذا محمـد

فسمي بذلك لكونه يستحق الحمد، ولكونه محموداً على ما بلغ من أمور الرسالة.

قوله -رَحِمَهُ اللَّهُ-: «وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ»، ويُسن أيضًا الصلاة والسلام على آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين.

وآله هم: أقاربه وأهل بيته، كزوجاته أمهات المؤمنين، وذريته، كبناته: رقية وأم كلثوم وزينب وفاطمة، وكلهن أدركن الإسلام وتزوجن وولد لهن، فأولادهن ذكورًا وإناثًا يدخلن في الآل، وكذلك أيضًا ذريتهن، يدخلون في الآل، وكذلك أيضًا أقاربه كأعمامه حمزة والعباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وأولاد أعمامه، ومن أعمامه الحارث بن عبدالمطلب، والزبير، وذرية الزبير كضباعة بنت الزبير، وكذلك أولاد العباس، ومن أسلم من أولاد أبي لهب وذريتهم، فهؤلاء كلهم من آله، وهذا خلافًا لعقيدة الرافضة، فإن آله عندهم خاص بعلي والحسن والحسين وفاطمة وذرية الحسين، هؤلاء عندهم هم الآل، ونسوا أن العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أقارب النبي ﷺ حتى قال ﷺ: **(عَمَّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ)**[1]، فهو من أقرب آله، وكذلك أولاده ومنهم عبدالله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فإنه هو والد الخلفاء العباسيين وكلهم من آله.

---

(١) أخرجه مسلم (٩٨٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وعلى قول بعض العلماء فإن آله الذين اتبعوه على دينه.

وأصحابه: الذين آمنوا به في حياته، واجتمعوا به وصدقوه، أو جاهدوا معه ورأوه.

وأما أتباعه فهم: الذين ساروا على طريقته ونهجه إلى يوم الدين، كل من كان مصدقًا له، فإنه يعدُّ بذلك من أهل الدين، ومن أتباع النبي ﷺ.

يقول بعد ذلك: (أَمَّا بَعْدُ)، كلمة يؤتى بها للانتقال من أسلوب إلى أسلوب، واختلفوا في أول من قالها، ولم يذكروا يقينًا أنه فلان.

ثم يقول -رحمه الله-: «فَهَذَا مُخْتَصَرٌ جِدًّا»، المختصر: ما قل لفظه وكثر معناه، الكلام القليل الذي فوائده كثيرة، وقد رُوي عن علي رضي الله عنه أنه قال: «خير الكلام ما قل ودل، ولم يطل فيُمل»، فالمختصر هو: الذي يفيد من قرأه من ذوي الفهم، وذوي العلم، ويختصرون كثيرًا في العقائد ونحوها؛ لأجل أن يتيسر حفظها، فإن طالب العلم إذا حفظ قصيدة علمية، أو حفظ نبذة مختصرة، فإنه بلا شك سوف يستفيد، وتبقى معه هذه المحفوظات، ويستفيد منها في بقية حياته، كلما أحب قرأها وجدد العهد بها.

قوله -رحمه الله-: (فِي أُصُولِ الْعَقَائِدِ الدِّينِيَّةِ)، ذكر أن هذا المختصر في أصول العقائد الدينية، العقائد: جمع عقيدة، وسميت بذلك؛ لأن القلب يعقد عليها، وذلك لأن المعتقد إذا اعتقد ذلك انعقد قلبه عليه لا يتزلزل عن ذلك، ولا يترك هذا المعتقد ولو جاءته كل شبهة، أو كل محنة أو أذى أو نحو ذلك، بل يبقى على هذه العقيدة، هذا هو الأصل في تسميتها عقائد وعقيدة.

وجمعها ها هنا إشارة إلى أن العقائد تشتمل على: عقيدة الأسماء والصفات، وعقيدة الإخلاص والتوحيد، وعقيدة البعث والنشور، وعقيدة الأمر والنهي، وما أشبه ذلك، وأضيفت إلى الدين؛ لأن الدين هو ما يُدان الله تعالى به، أي: ما يدين به العباد لربهم.

قوله - رحمه الله -: «وَالأُصُولِ الْكَبِيرَةِ الْمُهِمَّةِ»، وسميت بالأصول واحدها أصل، والأصل في اللغة: ما يُبنى عليه غيره، أو ما يتفرع عنه غيره فأصل البناء أساسه، والعادة أن المباني يكون لها أساس قوي حتى تثبت تلك الفروع والحيطان إذا كان لها أساس قوي، وكذلك أيضًا الشجر أساسه عروقه، فساق الشجرة أصلها وعروقها ونحو ذلك، وذكر أن هذه الأصول أصولاً كبيرة يعني: لها مكانتها في العلم والدين، وأنها مهمة، أي: لها أهميتها، فهي مما ينبغي أن يُهتم بها اهتمامًا قويًا.

يقول - رحمه الله -: «اقْتَصَرْنَا فِيهَا عَلَى مُجَرَّدِ الإِشَارَةِ وَالتَّنْبِيهِ»، هذا معنى كونها مختصرة، أنه اقتصر على الإشارة بأن يذكر ما يدخل في المعنى على وجه الإشارة دون أن يتوسع في ذكر الأدلة ونحوها، أو ما يتفرع عنها، وقصد بذلك التنبيه للقارئ ليسأل عما وراء ذلك.

يقول: «مِنْ غَيْرِ بَسْطٍ لِلْكَلامِ»، البسط هو: التوسع في الكلام، وذكر الفروع التي تتفرع عن تلك الأصول وما أشبهها.

قوله - رحمه الله -: «وَلا ذِكْرِ أَدِلَّتِهَا»، الأدلة: النصوص التي تدل على الحكم من آيات، أو أحاديث، أو تعليلات، أو كلام للائمة، أو كلام للصحابة رضي الله عنهم، أو ما أشبه ذلك.

يقول: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ لَهَا أَنَّهَا مِنْ نَوْعِ الْفِهْرِسْتِ لِلْمَسَائِلِ»، فهرست المسائل: هو تقريبها، وذكر جمل تدل على ما وراءها، والكتب عادة تُختم بذكر فهرست لها، حتى يطلع عليها الإنسان، ويبحث عما يريد تفصيله، فذكر أنه بمنزلة الفهرست للمسائل.

يقول: «لِتُعْرَفَ أُصُولُهَا وَمَقَامُهَا وَمَحَلُّهَا مِنَ الدِّينِ»، لعل الصواب: لتعرف أيها الطالب أصولها، الأصول هي ما ذكرنا من أن الأصول هي أصول العقائد، والجمل التي إذا عُرفت يُعرف ما وراءها، تعرف أصولها، وتعرف «مَقَامَهَا»، أي: ماذا تقوم به منها، وماذا تعمل، وتعرف «مَحَلَّهَا مِنَ الدِّينِ»، أي: مكانتها، إذا عرفت الإيمان عرفت مكانته، وإذا عرفت العقيدة عرفت مكانتها، وإذا عرفت أسماء الله تعالى وصفاته عرفت أهميتها، وما أشبه ذلك.

يقول -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى-: «ثُمَّ مَنْ لَهُ رَغْبَةٌ فِي الْعِلْمِ يَتَطَلَّبُ بَسْطَهَا وَبَرَاهِينَهَا مِنْ أَمَاكِنِهَا»، بعدما ذكر أن هذا المختصر مختصر جدًا في أصول العقائد الدينية، ذكر أنها قد تحتاج إلى بسط، وتحتاج إلى ذكر أدلة، وإلى ذكر براهين، وأن الذي له رغبة في العلم إذا حفظها، قدر على أن يطلب براهينها من أماكنها، فإن العلماء المتقدمين قد بسطوا هذه المختصرات، وهذه القواعد في مؤلفات كبيرة، ومؤلفات صغيرة فيما يتعلق بالعقيدة، فكتب العقائد والمؤلفات فيها كثيرة، منها للمتقدمين كتاب (السنة) لعبدالله بن الإمام أحمد، ذكر فيه الأدلة على إثبات السنة ونحوها، وكتاب (السنة) لأبي بكر الخلال، وهو مطبوع في عدة مجلدات، وهو جزء من المجموع الذي جمعه واستوفى فيه ما نُقل عن الإمام أحمد بقدر ما وصل إليه علمه وقدرته، وبسط هذه الأدلة أيضًا من المتقدمين

اللالكائي في (شرح أصول اعتقاد أهل السنة)، كتاب كبير ذكر فيه مذاهب أهل السنة، وبسطها ابن بطة في كتاب (الإبانة الكبرى)، وبسطها صاحب كتاب (الشريعة) الإمام الآجري، وهؤلاء تقيدوا بمعتقد أهل السنة رحمهم الله؛ وذلك لأن في زمانهم كتب المبتدعة كثيرًا من المؤلفات، وبسطوا فيها بدعهم، ومذاهبهم، فحرص أهل السنة على أن يثبتوا ما وصل إليهم من كتب أهل السنة، ومن النقول عن الصحابة رضي الله عنهم، وعن السلف الصالح من الأدلة على الإثبات، والأدلة على التوحيد، وكذلك أيضًا من المتأخرين من بسطوا هذه الأدلة، ولكن غلب على المتوسطين الاشتغال بعلم الكلام، الذي شغلوا به أوقات الناس، وغلب عليهم أيضًا الاعتقاد الخاطئ الذي سلكه الأشاعرة، وادعوا أنهم على مذهب الأشعري، فمؤلفاتهم متونها، وشروحاتها، ومختصراتها، تتعلق بهذا المعتقد؛ فلأجل ذلك يوصي العلماء بترك الاطلاع عليها؛ ولذلك يقول ابن القيم -رحمه الله- في النونية لما ذكر بعض مؤلفاتهم، قال:

فانظر ترى لكن نرى لك تركها ... حذرًا عليك مصائد الشيطان[1]

يعني: إنك إذا نظرت إليها وأنت بعقل وذكاء وفطنة عرفت تهافتها، وقد ذكروا أن نهايتهم الحيرة، وعدم المعرفة لما يريدونه، كما نقل شيئاً من كلامهم شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في مقدمة كتابه (الحموية الكبرى)، وكذلك أيضًا ابن أبي العز في أثناء كلامه في شرح الطحاوية، فلذلك ينهون عن كتب المتكلمين الذين يدعون أن هذا معتقد الأشعري، وقد أخطؤوا في ذلك، فإن أبا الحسن الأشعري تراجع عما كان عليه أولاً من المذهب الخاطئ، وألف في ذلك

---

(١) قصيدة ابن القيم مع شرح ابن عيسى ٢/ ٧٢.

كتابه الذي سماه (الإبانة في أصول الديانة)، رسالة مختصرة تتعلق بالعقيدة، وقد شرحها كثير من العلماء، وألف أيضًا (مقالات الإسلاميين)، وهو كتاب يتعلق بعقائد أهل زمانه ومن قبلهم، العقائد المنحرفة؛ ليحذر منه فهذا ونحوه دليل على أن أكثر كتب المتكلمين مضطربة، حيث إنهم يتكلمون على ما يعتقدونه، فيكون كلامهم ينقض بعضه بعضًا؛ فلذلك يحذر منها السلف -رحمهم الله -بل ويحذرون من الإنصات لهم، ومجادلتهم، وسماع كلامهم، وقد نقل ابن بطة في (الإبانة)، أدلة وآثارًا كثيرة، في تحذير السلف من الجلوس إليهم، وسماع كلامهم، ولو ادعوا أنهم على براهين بينة، لكنهم يحرفون الكلم عن مواضعه.

وقد أخرج الله تعالى شيخ الإسلام ابن تيمية في القرن السابع والثامن ونفع الله به، وأعلن العقيدة السليمة، وكتب في ذلك المؤلفات الكبيرة، فمنها كتاب (منهاج السنة)، الذي رد به على الرافضي ابن المطهر، وتكلم فيه كلامًا كثيرًا يتعلق بالعقيدة وبراهينها، ومنها (نقض التأسيس)، والتأسيس كتاب ألفه الرازي المشهور وهو صاحب (التفسير الكبير) على عقيدة الأشاعرة، وادعى أنه عقيدة أهل السنة، ولكنه ألفه لبعض الأمراء أو بعض السلاطين، وسلك به مسلك الأشاعرة، فرد عليه شيخ الإسلام بهذا الكتاب الكبير (نقض التأسيس)، وله أيضًا كتاب آخر اسمه (درء تعارض العقل والنقل)، أو يُسمى (موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول)، وهو من أنفع الكتب، وفيه يقول ابن القيم -رحمه الله- :

واقرأ كتاب العقل والنقل الذي ... ما في الوجود له نظير ثاني[1]

---

(١) قصيدة ابن القيم مع شرح ابن عيسى (٢/٢٩٠).

فالحاصل أن فيها وفي أمثالها بسط الأدلة، التي تدل على هذا التوحيد، وهذه العقائد.

يقول الشيخ -رحمه الله-: «وَإِنْ يَسَّرَ اللهُ، وَفَسَحَ فِي الأَجَلِ، بَسَطتُ هَذِهِ الْمَطَالِبَ وَوَضَّحْتُهَا بِأَدِلَّتِهَا»، هكذا وعد بأنه سيشرح هذه العقيدة أو هذا التوحيد، ولكن فاتته المنية، ولعل تلاميذه قد شرحوها، ومنهم سماحة الشيخ/ محمد بن صالح بن عثيمين -رحمه الله- فإنه من أخص تلاميذه، وهو الذي نفع الله تعالى به.

الأَصْلُ الأَوَّلُ

التَّوْحِيدُ

حَدُّ التَّوْحِيدِ الْجَامِعِ لأَنْوَاعِهِ: هُوَ اعْتِقَادُ الْعَبْدِ وَإِيمَانُهُ بِتَفَرُّدِ اللهِ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ، وَإِفْرَادُهُ بِأَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ، فَدَخَلَ فِي هَذَا: تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ الَّذِي هُوَ: اعْتِقَادُ انْفِرَادِ الرَّبِّ بِالْخَلْقِ وَالرِّزْقِ، وَأَنْوَاعِ التَّدْبِيرِ.

الشرح:

يقول الشيخ - رحمه الله -: «الأَصْلُ الأَوَّلُ: التَّوْحِيدُ»، بدأ بالتوحيد؛ لأنه أهم ما حصل فيه الخلاف بين الرسل وأممهم.

والتوحيد: مشتق من لفظ الواحد، وسمي بذلك لأن الله تعالى واحد في ربوبيته، لا ند له، واحد في أسمائه وصفاته، لا مثيل له، واحد في عبادته وإلهيته-، لا شريك له، هكذا ذكر بعض العلماء هذا التعريف، ومنهم الشيخ حمد بن عتيق - رحمه الله - في كتابه (إبطال التنديد).

ثم يقول - رحمه الله -: «حَدُّ التَّوْحِيدِ الْجَامِعِ لأَنْوَاعِهِ: هُوَ اعْتِقَادُ الْعَبْدِ وَإِيمَانُهُ بِتَفَرُّدِ اللهِ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ، وَإِفْرَادُهُ بِأَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ»، فهو توحيد العبادة، وتوحيد الأسماء والصفات، وتوحيد الربوبية، وسمي اعتقادًا؛ لأن القلب يعقد عليه، وذلك لبراهينه، وقوة أدلته، وأيضًا لأن الخلاف فيه خلاف مع المبتدعة، وخلاف مع المشركين، فكان لابد أن العبد يعقد عليه قلبه، بحيث لا يتزعزع، ولا يضطرب في عقيدته، ولو جاؤوه بكل برهان في نظرهم، ولو شككوه، فإنه يثبت على ما اعتقد، دون أن يضطرب في هذا الاعتقاد، هكذا سموه اعتقادًا

من العقد الذي هو: ربط الشيء في غيره بإحكام، فكأن المسلم يربط هذه الأشياء في قلبه، بحيث لا تضطرب ولا تخرج منه، ولو جاءته شبهات، أو تخيلات، ونحو ذلك، وكذلك لفظ الإيمان في قوله: «وَإِيمَانُهُ»، فهو في الأصل عمل القلب، وتصديقه تصديقًا قويًا؛ ولذلك يُسمى في اللغة: كل تصديق قوي إيمانًا، كقوله تعالى عن إخوة يوسف عليه السلام: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ﴾[يوسف: ١٧]، أي: مصدق، فالعبد يؤمن إيمانًا ثابتًا راسخًا، بتفرد الله تعالى بصفات الكمال، وإفراده بأنواع العبادة؛ لأن الله تعالى متفرد بجميع صفات الكمال، وعبارة العلماء يقولون: لا يوصف الله تعالى إلا بما وصف به نفسه في كتابه، وبما وصفه به نبيه محمد ﷺ في سنته الثابتة الصحيحة، هكذا تكون صفات الكمال، ونعتقد أنها كلها صفات كمال، ليس فيها صفة نقص، وما ذاك إلا أن الرب سبحانه وتعالى له الكمال المطلق، كما أخبر عن نفسه بقوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: ٣٦، ٣٧]، وذكر أسماءه في كتابه العزيز مقرونة ببعض صفاته كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[الحشر: ٢٢-٢٤]، فوصف نفسه بأنه الإله الحق الذي لا إله غيره، والذي له الألوهية التامة، ووصف نفسه بأنه عالم الغيب والشهادة، أي بسعة العلم بكل شيء، غائب وحاضر، ووصف نفسه بالرحمة أنه الرحمن الرحيم، وسمى نفسه بالأسماء الحسنى الملك القدوس إلى

آخرها، فهذا بعض من أسمائه وصفاته التي هي صفات كمال، وكل صفة ثبتت للعبد وفيها كمال، فالرب سبحانه أولى بأن يوصف بها، مع أن الرب قد أخبر بها لنفسه، أي: أثبتها وأخبر بها، وفي هذه الآية قوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، أي: نثبت له صفة العلم، التي أثبتها لنفسه، وأثبتها له نبيه محمد ﷺ، ولو أنكر ذلك المعتزلة ونحوهم، وكذلك إفراد الله تعالى بالعبادة، ومعنى ذلك أن جميع أنواع العبادة كلها لله تعالى.

والعبادة اشتقاقها من التعبد الذي هو التذلل والخضوع، وسميت القربات التي يتقرب بها العبد إلى الله تعالى عبادات؛ لأنه يفعلها على وجه التذلل والخضوع والإذعان والإنابة، يفعلها منيبًا إلى الله سبحانه، معظمًا الرب تعالى بها، فيركع له، ويسجد له، وهذا فيه تذلل، ويدعوه كقوله تعالى: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، وقوله: ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر: ١٤]، وقد قال النبي ﷺ: **(الدُّعَاءُ هو الْعِبَادَةُ)**[1]، وقرأ قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ [غافر: ٦٠]، فبدأ الآية بالدعاء، وجعل فيها العبادة، فهكذا يكون العبد عابدًا لربه يعترف بأنه عبد، ويدخل في ذلك أنواع العبادة التي أمر الله بها: ومنها الخوف، والرجاء، والتوكل، والإنابة، والرغبة، والرهبة، والخشوع، والخشية، والاستعانة، والاستعاذة، والاستغاثة، والركوع، والسجود، والتوبة، والاستغفار، ونحو ذلك، هذه عبادات بدنية أو قلبية يخلصها العبد لربه، فهو

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي(٢٩٦٩)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، وأحمد (٤/ ٢٧١)، والحاكم (١/ ٦٦٧)من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

تعالى متفرد بأنواع العبادة فلا يشركه فيها شيء، وتجمع العبادة كلمة **(لا إله إلا الله)**، وهي التي دعا إليها الرسل، بدؤوا رسالتهم بها، فكل نبي يبدأ دعوته بقوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾، والإله: اسم لمن تألفه القلوب، وتحبه وتوده، وتتقرب إليه، فإذا آمن المسلم بأن الله تعالى هو الإله الحق، وأن كل إله غيره فإن إلهيته باطلة، فإنه يخلص الإلهية لله تعالى، فيخلص له الدعاء والرجاء، ويخلص له جميع أنواع المحبة بكل ما يتمكن منه؛ ليكون بذلك عابدًا لله سبحانه وتعالى، ومعرضًا عن عبادة ما سواه.

يقول الشيخ -رحمه الله-: «فَدَخَلَ فِي هَذَا: تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ الَّذِي هُوَ: اعْتِقَادُ انْفِرَادِ الرَّبِّ بِالْخَلْقِ وَالرِّزْقِ، وَأَنْوَاعِ التَّدْبِيرِ»، وهذا التوحيد قد اعترف به المشركون، فإنهم يعترفون بأن الله تعالى هو ربهم الذي يدبر الأمور، قال الله تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾[يونس: ٣١]، فأخبر أنهم سوف يعترفون لله تعالى بهذا التوحيد، وهو توحيد الربوبية، وقال الله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٨٥ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٨٧ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ﴾[المؤمنون: ٨٤-٨٩]، وقال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[العنكبوت: ٦١]، تكررت هذه الآية في سورة (العنكبوت)، وفي سورة (لقمان)، وفي سورة (الزخرف)، فدل على أنهم يعترفون بأن الله تعالى هو ربهم، وخالقهم، وصار هذا الاعتراف حجة عليهم،

كأن الله تعالى وبخهم فقال: كيف تقرون بأنه الخالق، أي: أنه خالق كل شيء، وأنه الرب المتصرف، ومع ذلك تصرفون حقه من العبادة لغيره من المخلوقات، ومن الأخشاب والأحجار وما أشبهها، مع أنهم يجعلون تلك المعبودات واسطة بينهم وبين الله، ويعتقدون أنها تقربهم إلى الله زلفى، فهكذا يقرون بهذا النوع الذي هو توحيد الربوبية، وفي هذه الأزمنة ينكره الدهريون، والذين يسمون الشيوعيون، الذين ينكرون وجود الخالق، تعالى الله عن قولهم، فيكابرون المعقول والمنقول، وقد ذكر ابن كثير -رحمه الله- عند تفسير قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢]، ذكر بعض الأدلة على هذا التوحيد وذكر حكايات عن الأئمة الأربعة في تقريره، وذكر أن أعرابيًا سُئل عن وجود الرب فقال: «يا سبحان الله! إن البعر ليدل على البعير، وإن أثر الأقدام لتدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير؟!»[1]، وذكر أيضًا كثيرًا من النقول عن الأئمة في إثباتهم لهذا التوحيد الذي هو وجود الرب -سبحانه وتعالى- وتكلم عليه أيضًا ابن القيم -رحمه الله- في أول كتابه الذي سماه (مفتاح دار السعادة)، وبسط الكلام في الأدلة من كل شيء، حتى من الإنسان نفسه، ومن جميع الحيوانات، كيف خلقها الله تعالى، وأحسن خلقها، وجعل فيها آيات وعبرًا لمن تأمل فيها وتعقل، دالة على أن الله تعالى خالق كل شيء، وأنه بكل شيء عليم، وأنه تفرد بخلق المخلوقات، وتفرد برزقها، وتكفل بذلك، قال

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٥٨.

تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾[هود: ٦]، أي: يسر لها رزقها، وقال النبي ﷺ: **(لو أَنَّكُمْ تَتَوكَّلُونَ على اللّهِ حَقَّ تَوكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كما يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا)**[1]، وفي الآية التي ذكرنا وهي قوله تعالى: ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾[يونس: ٣١]، أي: يدبر هذه الأمور، فمن الذي يسير هذه الأفلاك: الشمس والقمر والنجوم، ومن الذي يرسل هذه الرياح، ومن الذي ينشئ هذه السحب، وما أشبه ذلك، لا يقدر المخلوقون على أن يدبروا شيئًا منها، فدل على أن لها رب مدبر لها، وبذلك احتج الإمام أبوحنيفة رحمه الله في مناقشته للشاكين في وجود الله، فضرب لهم مثلاً بسفينة ليس فيها أحد وهي تدخل البحر، وتحمل لنفسها، وتنزل حمولتها، وترجع، ولا أحد يدبرها، فقالوا: إن هذا لا يصدق به عاقل، فقال: «ويحكم هذه الأفلاك، وهذه السحب، وهذه الموجودات كلها ليس لها رب يدبرها؟!» فتابوا على يديه وأسلموا، فليطالع الشاك كلام ابن القيم في (مفتاح دار السعادة)، ويجد فيه الكثير من عجائب المخلوقات، وتكلم أيضًا في كتابه (التبيان في أقسام القرآن)، عندما تكلم على سورة (الذاريات) على قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾، [الذاريات: ٢٠- ٢١]، وأطال النفس على قوله: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾، أي: في خلق الإنسان آيات وعبر لمن تأمل فيها، والأدلة العقلية ونحوها على ذلك كثيرة.

فنقول: إن العاقل يكفيه أن يتأمل بعقله؛ ليعرف أن هذا الوجود له رب خالق ومدبر، فيعترف بذلك، ولا يعتريه شك، ويقطع بذلك شبه هؤلاء

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٤٤)، وابن ماجه (٤١٦٤)، وأحمد ١/ ٣٠. من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

الفلاسفة، أو من شابههم، والدهريين ونحوهم، ويرد عليهم ردًا كاملاً، ويثبت عقيدته التي يعتقدها بأن الرب سبحانه وتعالى هو رب كل شيء، وهو خالق كل شيء، وهو المدبر لكل شيء، ويتأمل الأدلة القرآنية على ذلك مثل قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[البقرة: ١٦٤].

ومثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾[النبأ: ٦]، إلى آخر الآيات، وقوله عز وجل: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا﴾[المرسلات: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾[عبس: ٢٤- ٢٥]، ونحو ذلك، وقوله جل وعلا: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا﴾[النازعات: ٢٧]، وما أشبهها، ليرى بذلك أنه مخلوق، وأن الذي خلقه هو الذي خلق هذه المخلوقات، وأنه قادر على كل شيء، فترسخ هذه العقيدة في قلبه، حتى يتحقق ما هو عليه من هذه العقيدة.

وَتَوْحِيدُ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَهُوَ: إِثْبَاتُ مَا أَثْبَتَهُ لِنَفْسِهِ، وَأَثْبَتَهُ لَهُ رَسُولُهُ مِنَ الأَسْمَاءِ الْحُسْنَى، وَالصِّفَاتِ الْكَامِلَةِ الْعُلْيَا مِنْ غَيْرِ تَشْبِيهٍ، وَلاَ تَمْثِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلاَ تَعْطِيلٍ.

الشرح:

يقول الشيخ - رحمه الله -: **(وَتَوْحِيدُ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ...)**، وهذا النوع الذي هو توحيد الأسماء والصفات هو الذي كتب فيه العلماء من السلف، كابن خزيمة كتابه (التوحيد)، وكابن منده كتابه (التوحيد)، وكتب فيه أيضًا كثيرون، منهم من سماه كتاب (الإيمان)، كابن منده أيضًا، وابن أبي شيبة وغيرهما، ومنهم من جعله كتاب السنة؛ لأنه عقيدة متلقاة من سنة النبي ﷺ، وقد أكثر السلف ـ رحمهم الله ـ من الكتابة فيه، وسبب ذلك أنهم ابتلوا بمن أنكر الأسماء والصفات، أو أنكر دلالة الأسماء، وهم الذين يسمون المعطلة، الذين عطلوا الله عن صفات الكمال، وأول من اشتهر بإنكار الصفات هو أبو عبيد من رؤوس المعتزلة، ذكر ابن كثير في (التاريخ) في ترجمته أنه اشتهر بإنكار الصفات، ويمكن أن قبله واصل بن عطاء، كذلك الجعد بن درهم، والجهم بن صفوان، ومن جاء بعدهم من المعتزلة، كبشر المريسي، وأبي الهذيل، وابن أبي دؤاد، وأبي هاشم الجبائي، ثم خدمهم في ذلك، وتوسع لهم كبيرهم القاضي عبدالجبار الهمداني، وهو الذي توسع في مؤلفاته لهم، حتى كتب في ذلك كتابًا كبيرًا اسمه (المغني)، وقد طبع في أربعة عشر مجلدًا، فهم ينكرون صفات الله تعالى.

وأهل السنة يثبتون هذه الصفات لله كما يليق به، فيثبتون الصفات الذاتية، مثل صفة اليدين، وصفة العين، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾، [طه: ٣٩]، وقوله جل وعلا: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، [الطور: ٤٨]، وصفة النفس كقوله عز وجل: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾، [الأنعام: ٥٤]، وصفة الوجه كقوله عز شأنه: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، وقوله جل وعلا: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾، [القصص: ٨٨]. وكذلك الصفات التي أثبتها النبي ﷺ في سنته، فيثبتها أهل السنة.

كذلك الصفات الفعلية فإن المعتزلة نفوها كلها، فنفوا صفة الاستواء، وسلطوا عليه التأويلات، وكذلك صفة المجيء، والنزول الذي أثبته الله في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، وأثبت النبي ﷺ النزول في قوله: **(يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ)**(١) وأثبت أيضًا المجيء يوم القيامة لفصل القضاء بين العباد، وكذلك الصفات الذاتية كالسمع والبصر، فإن الله أثبتهما لنفسه، والعلم والقدرة، والإرادة، والكلام، وكذلك بقية الصفات: كصفة المحبة كما في قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[المائدة: ٥٤]، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ﴾ [الصف: ٤]، وقوله جل وعلا: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦]، ونحو ذلك كثير، وصفة الرحمة كقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾، [الأعراف: ١٥٦]، وكقوله عز وجل: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، [يوسف: ٩٢]،

(١) أخرجه البخاري (١٠٩٤)، ومسلم (٧٥٨) واللفظ له، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وكذلك صفة الغضب والرضى، فقد أثبته الله في قوله تعالى: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾، [النساء: ٩٣]، وكذا قال في المنافقين، والرضى في قوله عز وجل: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾، [المائدة: ١١٩]، وكذا صفة العجب في قوله جل وعلا: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ [الرعد: ٥]، وفي قراءة: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾، [الصافات: ١٢]، وصفة الكيد والمكر وأدلته كثيرة، وكذا بقية الصفات الفعلية، التي أنكرها هؤلاء المبتدعة، وقد ردوا الأحاديث الدالة عليها مع كثرة الأحاديث، وقالوا: إن هذه الأحاديث آحاد، والآحاد لا تفيد إلا الظن، والعقيدة لابد فيها من اليقين، فردوا أخبار الآحاد؛ لاعتقادهم أنها لا تفيد إلا الظن، مع أنهم يقبلونها في الفروع، ولا يقبلونها في الأصول.

وقد كثرت الأدلة على ذلك، آيات وأحاديث جاءت في إثبات هذه الصفات للرب سبحانه وتعالى.

قوله - رحمه الله - : «مِنَ الأَسْمَاءِ الْحُسْنَى»، كذلك ذكر الله تعالى الأسماء الحسنى في مواضع، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف: ١٨٠]، وقوله عز وجل: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، [الإسراء: ١١٠]، وكقوله جل وعلا: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، [طه: ٨]، وقد ثبت أن النبي ﷺ قال: **(إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إلا وَاحِدًا من أَحْصَاهَا دخل الْجَنَّةَ)**[1]، وقد جمعها بعضهم من القرآن

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وروى ذلك الترمذي في سننه[1] والدارمي[2] في الرد على بشر المريسي بإسنادهما، ورجح الترمذي أن سرد الأسماء من كلام بعض الرواة جمعوها من القرآن، وليس في الحديث أن أسماء الله محصورة في التسعة والتسعين، وإنما أخبر بأن هذه التسعة والتسعين من أحصاها دخل الجنة، أي: من اعتقدها، واعتقد دلالاتها، وأثبتها لله تعالى، فإن ثوابه الجنة، ويدل على أن الأسماء كثيرة ما ورد أنه ﷺ ذكر الدعاء الذي فيه: **(أسألك بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ)**[3]، فدل على أن لله أسماء قد استأثر بها في علم الغيب عنده.

ثم إن أهل السنة يثبتون دلالة الأسماء على صفات؛ ذلك لأن بعض المعتزلة يثبتون الأسماء دون الصفات حتى الأسماء الظاهرة، ويقولون: إن الله سميع بلا سمع، بصير بلا بصر، عليم بلا علم، قدير بلا قدرة وهكذا، ويجعلون هذه الأسماء مجرد أعلام، لا تدل على الصفات المشتقة منها، ولاشك أن هذا قول بعيد، كما أن من تتبع الأسماء في القرآن، علم أن كل اسم دال على صفة، من ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ

---

(١) برقم (٣٥٠٦) وقال بعد سرد الأسماء: «هذا حديث غريب حدثنا به غير واحد عن صفوان بن صالح ولا نعرفه، إلا من حديث صفوان بن صالح وهو ثقه عند أهل الحديث، وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، ولا نعلم في كبير شيء من الروايات له إسناد صحيح ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث، وقد روى آدم بن أبي إياس هذا الحديث بإسناد غير هذا عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، وذكر فيه الأسماء وليس له إسناد صحيح».

(٢) نقض الإمام عثمان بن سعيد الدرامي على المريسي الجهيمي ١/١٨٠-١٨٣.

(٣) الحاكم ١/٦٩٠.

ﱡﭐ ﭑ ﭒ ﭓﱠ [البقرة: ٢٢٦- ٢٢٧]، فأخبر بأن كل الأسماء لها معان، ففي الآية الأولى استعمل غفور رحيم، وفي الآية الثانية استعمل سميع عليم؛ ليدل على أن المعنى مقصود ومطلوب، فدلت هذه الآيات على إثبات هذه الصفات التي تؤخذ من هذه الأسماء، فيثبت أهل السنة دلالتها، ويعتقدون أن أسماء الله كلها حسنى، أي موصوفة بالحسن، وأن صفاته كاملة عليا، رفيعة القدر، سواء الصفات المأخوذة من الأسماء: كالسمع، والبصر، والعلم، والقدرة، والإرادة، والمحبة، والرحمة، والغضب، والرضا، وما أشبه ذلك، أو الصفات التي أثبتها وإن لم تؤخذ من الأسماء، كقوله عز وجل: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤]، ﴿وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣]، ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥-١٦]، ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥]، ونحو ذلك مما فيه إثبات صفات لا يُشتق منها أسماء، دالة على ما فيها من المعنى الذي تدل عليه تلك الأسماء، وتلك الصفات، ويعتقد ذلك أهل السنة والجماعة.

قوله -رحمه الله-: «وَالصِّفَاتِ الْكَامِلَةِ الْعُلْيَا»، بالنسبة إلى الصفات فأهل السنة يثبتونها ولا يكيفونها، كقولهم في صفة النزول: ينزل بلا كيف، أو يُرى بلا كيف، أو يسمع ويبصر بلا كيف ونحو ذلك، ويقولون في آيات الصفات: أمروها كما جاءت بلا كيف، فجعلوها دالة على صفات، ولكن تلك الصفات لا نعلم كيفيتها، إنما نوقن بأنها صفات كاملة ثابتة؛ ولهذا لما سُئل مالك -رحمه الله- عن الاستواء، قال: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»[1]، وكذلك أيضًا شيخه ربيعة قال:

---

(١) تذكرة الحفاظ ١/٢٠٩، وحاشية ابن القيم على سنن أبي داود ١٣/٢٥.

«الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، ومن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم»[1].

فالذين أنكروها إذا جاءتهم الأدلة من القرآن حرفوها، وصرفوها عن دلالتها، فيحاولون صرف الكلمة إلى معنى بعيد، فيقولون في: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، أي: استولى، ويقولون عن الكلام الذي أثبته الله لنفسه، إنه كلام نفسي، لا أنه كلام حقيقي مسموع بحروف وبأصوات، فينكرون على من يقولون: إن الله يتكلم بحرف وصوت، ويجعلون الكلام هو المعنى دون اللفظ، فهذه عقيدتهم.

وبالنسبة إلى الأشاعرة فإنهم قد اشتهروا في القرون الوسطى، أي: من القرن الرابع إلى هذا القرن، وتمكنت عقيدتهم، واشتهرت، وقوي الدعاة إليها، والمعلمون لها، فعقيدتهم أنهم يثبتون سبع صفات يجمعها هذا البيت:

حي عليم قدير والكلام له إرادة وكذاك السمع والبصر

ويقولون: لا نثبتها إلا بالعقل، كأنهم لا يعتبرون الشرع دليلاً، وإنما يقولون: أثبتناها بالعقل، فأثبتوا القدرة استدلالاً بالحوادث التي تحدث في هذا الكون، فإنها دالة على قدرة الله تعالى، وأنه على كل شيء قدير، وأثبتوا الإرادة بوجود التخصيص، أن الله يخص هذا بالفقر وهذا بالغنى، وهذا بالعلم وهذا بالجهل، وهذا بالقوة وهذا بالضعف، فهو دليل على أن الله أراد بهذا ما لم يرد بالآخر، فجعلوا ذلك دليلاً على إثبات الإرادة، وكذلك بقية إثباتهم لهذه الصفات.

---

(١) تاريخ الإسلام ٨/٤٢٢، وفتح الباري ١٣/٤٠٦.

فنقول: إننا نثبت بقية الصفات بالعقل، فنثبت الرحمة، ونثبت الرضى، ونثبت الغضب، وغيرها على ما يليق بالله تعالى، ونقول: إن العقل دال عليها كما تستدلون بالعقل على هذه الصفات.

أما قوله - رحمه الله -: «مِنْ غَيْرِ تَشْبِيهٍ، وَلاَ تَمْثِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلاَ تَعْطِيلٍ»، فإنه يرد بذلك على الذين يرمون أهل السنة بالتشبيه، فعندهم أن من أثبت هذه الصفات فإنه مشبه، وأكثر ما يكررون قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ويسكتون عن آخر الآية، فإن هذا جزء من آية في سورة (الشورى)، أخبر الله تعالى بأنه منزه عن مماثلة المخلوقات، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ أي: لا يوجد له مثل، لا في ذاته ولا في صفاته، ثم قال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ فأثبت في الآية نفسها صفتين: السمع والبصر.

فأهل السنة يثبتون ذلك كما أثبته الله، ويقولون: نؤمن بذلك على ما جاء عن الله، ويقولون: آمنا بالله، وبما جاء عن الله، على مراد الله، وآمنا برسول الله، وبما جاء عن رسول الله، على مراد رسول الله، ويقولون: نحن إذا أثبتنا فإننا لا نشبه، بل ننفي التشبيه في الذات وفي الصفات، فأنتم إذا كنتم تثبتون الذات لله، سألناكم هل هي كذوات المخلوقين؟ فإذا قلتم: لا، بل إنها ذات تليق به، قلنا: وكذلك الصفات أثبتوها وقولوا: صفات تليق به، ولا يلزمكم تشبيه ولا تمثيل، ولا تحريف، ولا تعطيل، حيث إن الكثير قد حرفوا الكلم عن مواضعه بحيث إنهم يأخذون دلالة النصوص، وهذا هو التحريف الذي عاب الله به اليهود في قوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦]، وقوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ٤١]، يتسلطون على

الكلام، فيصرفونه عن دلالته، ويدعون أن ذلك لأجل أن يتلاءم مع العقل، كأنهم يقولون: إن هذه الصفات يلزمنا صرفها عن ظاهرها، حتى لا تخالف العقل بل توافقه، وسلطوا عليها التأويلات، التي هي بعيدة عن ظواهرها، فنقول في: قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، استواء يليق به ليس كاستواء المخلوقين، كما قال ذلك أئمة السلف.

وقوله عز وجل: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [طه: ٦]، هذا أيضًا دليل على أن هذه الصفات نؤمن بها كما جاءت ولا نتأولها، وقد تكلف المعطلة حيث سلكوا هذا التأويل، ويريدون به صرف الكلام عن ظاهره، ويعرفون التأويل بأنه: دفع دلالة الآية، وصرف الكلام عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح، بدليل يقترن بالمرجوح، فقالوا: ظاهر قوله: ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾، أنه الاستقرار، ولكن هذا وإن كان قولاً راجحًا من حيث اللغة، إلا أنه لا بد أن نصرفه إلى الاستيلاء مع أنه مرجوح، لدليل يقترن بالمرجوح ألا وهو العقل، فهنا العقل ينكر هذا، ويؤولون قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الشورى: ٤]، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤]، وقوله جل وعلا: ﴿إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١]، وقوله جل شأنه: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، وقوله عز من قائل: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الليل: ٢٠]، فيقولون: القول الراجح هو العلو، فالأعلى هو العالي فوق الخلق، والقول المرجوح هو الاستيلاء، فاخترنا المرجوح، حتى لا نقع في التشبيه، وصار معنا الدليل المرجوح، ومعنا أيضًا العقل الذي نقيس به، ونبقى عليه، يقولون: إننا علمنا صدق الرسل بالعقل، فإذا جاءوا بشيء يخالف

العقل، لم نثبته، بل نقول: هذا يخالف ما دلت عليه العقول، هذه شبهتهم.

وقد كثر المتأولون، حيث فتح الأشاعرة باب التأويل، فأولوا أدلة الصفات إلا سبع صفات، فقال المعتزلة، إذا أولتم صفة المكر، والرحمة، والغضب، والرضى، والحب، والبغض، والكراهية، قدرنا على أن نؤول بقية الصفات، فنؤول صفة الوجه، والإرادة، وصفة العين، وصفة القدم، التي وردت في الحديث، وصفة الاستواء، والنزول، وصفة السمع، والبصر، فلستم أقدر منا على هذا التأويل، فإذا أولتم قدرنا على أن نؤول.

ودخل من هذا الباب أيضًا، المبتدعة، الذين ابتدعوا شيئًا ما أنزل الله به من سلطان، وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، فسلكوا طريق التأويل، فقال الصوفية: إذا أولتم آيات الصفات أولنا آيات العبادات، كالصلوات، والزكاة، والصوم، والحج، وأولنا أيضًا آيات الإرادة، والقدرة، والوجه، واليد، والسمع، والبصر والكلام، ونحو ذلك.

ونحن نقول: إننا ننزه كلام الله عن رده وعن تحريفه، ونقول: إننا إذا أثبتناه فإننا لا ننفي هذه الصفة، فنكون قد عطلنا الله تعالى عن صفات هي كمال، قد وصفه بها نبيه ﷺ، وأقر ذلك الصحابة رضوان الله عليهم ولم ينكروا هذا بل قالوا: إنه صحيح واعتقدوه، فنقول: نترك التأويل، ونترك التعطيل الذي هو نفي الصفات، فهم إما أن يثبتوا الأدلة ويؤولونها، وإما أن ينفوها ويعطلوا الخالق عن هذه الصفات كلها، فيكونون بذلك مؤولة، ومعطلة،

وقد ذكر ابن تيمية رحمه الله في رسالته (الحموية) أن الجهمية، والمعتزلة، والأشاعرة، يصدق عليهم أنهم ممثلة، وهم أيضًا معطلة، ووضح كونهم ممثلة وكونهم معطلة، بتوضيح ظاهر بالأمثلة.

فعلى هذا يقول أهل السنة: نثبت هذه الصفات من غير تشبيه ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، لا نسلك شيئًا من ذلك، فإن التأويل الذي يقولون هو في الحقيقة تحريف اليهود الذين ذمهم الله بقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦]، ذكر ذلك للتنفير من حالتهم، حتى لا تفعل هذه الأمة كما فعل اليهود ونحوهم من الذين يسلكون هذا التحريف، وهذا خلاف قول المسلمين وقول أهل السنة، الذين يعتقدون ذلك على ما يليق بالله تعالى، وهذا هو الواجب في أسماء الله تعالى وصفاته.

وَتَوْحِيدُ الأُلُوهِيَّةِ والْعِبَادَةِ وَهُوَ: إِفْرَادُه وَحْدَهُ بِأَجْنَاسِ الْعِبَادَةِ وَأَنْوَاعِهَا، وَإِفْرَادُهَا مِنْ غَيْرِ إِشْرَاكٍ بِهِ فِي شَيْءٍ مِنْهَا، مَعَ اعْتِقَادِ كَمَالِ أُلُوهِيَّتِه.

الشرح:

قوله-رَحِمَهُ اللَّهُ-: «وَتَوْحِيدُ الأُلُوهِيَّةِ والْعِبَادَةِ»، هذا النوع الثالث من أنواع التوحيد، وهو توحيد الألوهية وتوحيد العبادة، وهو ما يُسمى بالتوحيد العملي؛ لأنه أعمال يعملها العباد، ويُسمى التوحيد الطلبي؛ لأنه مطلوب من العباد، يطلبه الله تعالى منهم، ويُسمى التوحيد القصدي؛ لأن مقصود من الخلق أن يدينوا به، ويُسمى التوحيد الإرادي؛ لأن الله تعالى أراده من العباد، هذه أسماؤه، والأشهر أنه توحيد الألوهية، وذلك بأن يدين الخلق كلهم لله تعالى بأنه الإله الحق لا إله غيره، وهو إلههم ومعبودهم، وعليه تدل كلمة (لا إله إلا الله)؛ ولذلك ابتدأ النبي ﷺ بالدعوة إليه، فدعاهم إلى أن يقولوا: لا إله إلا الله، فدعاهم مرة فاجتمعوا، ففي الصحيحين من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[الشعراء: ٢١٤]، صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: **(يا بني فهر، يا بني عدي)**، لبطون قريش، حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبولهب وقريش فقال: **(أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تُغِير عليكم، أكنتم مصدِّقيّ؟)**، قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً، قال: **(فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد)**، فقال

أبولهب: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ [المسد: ١-٢][1].

وروى ابن عباس رضي الله عنهما قال: مرض أبوطالب فجاءته قريش وجاءه النبي ﷺ وعند أبي طالب مجلسُ رجل، فقام أبوجهل كي يمنعه، قال وشكوه إلى أبي طالب، فقال يا ابن أخي ما تريد من قومك؟ قال: (**إني أريد منهم كلمة واحدة تدين لهم بها العرب، وتؤدي إليهم العجم الجزية**)، قال: (كلمة واحدة؟)، قال: (كلمة واحدة)، فقال: (**يا عم قولوا: لا إله إلا الله**)، فقالوا: إلهاً واحداً، (ما سمعنا بهذا في الآخرة إن هذا إلا اختلاف)، قال: فنزل فيهم القرآن: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ إلى قوله: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [سورة ص، ١-٢، ٧][2]، يعني: أن لنا آلهة كثيرة، فكيف نقتصر على إله واحد، ونترك بقية آلهتنا، وهذا لأنهم يعرفون مسمى الإله؛ فلذلك عرفوا معنى كلمة (لا إله إلا الله)، وقد ذكر العلماء أن الإله هو الذي تألهه القلوب محبة، وإخلاصًا، وعبادة، وتذللاً، وإخباتًا، وإنابة إليه، فاشتقاقه من التأله الذي هو التذلل والخضوع، فالإله هو الذي تخضع له القلوب، وتذل له، وتتواضع له، وكذلك تحبه وترجوه، وتخافه، وتؤمل عفوه، هذا حقيقة الإله، الذي أمروا بأن يدينوا له، بالإلهية.

وهو الذي دعت إليه الرسل كلهم بدؤوا دعوتهم بهذا التوحيد، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧٠)، ومسلم (٢٠٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٣٢)، والنسائي في الكبرى (٨٧١٦)، وأحمد ١/٢٢٧، وابن حبان ١٥/٧٩.

[النحل: ٣٦]، أي: وحدوا الله تعالى، واتركوا عبادة الطواغيت التي رُفعت عن قدرها، وأعطيت حقًا من حق الله تعالى الذي هو عبادته، فاتركوا تلك الطواغيت، هكذا تقول لهم رسلهم، وكذلك قال عز وجل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، أي: يوحي الله تعالى إلى كل رسول، ويأمره بأن يقول لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[1]، يعني: أخلصوا له العبادة، ليس لكم إله غيره، وقال عز وجل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وكذلك قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، يعني: اسأل أممهم، واسأل من لقيت منهم، يعني الذين قابلهم ليلة أسري به، اسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا، هل جعلنا غير الرحمن آلهة ليعبدهم أهل الأرض؟ الجواب: لا، بل كلهم يدينون بكلمة (لا إله إلا الله)، كما ذكر الله ذلك في أول قصصهم في سورة (الأعراف)، في قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وقوله جل وعلا: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٦٥]، وقوله عز وجل: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وقوله جل وعلا: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٨٥]، وهكذا أيضًا في

(١) في عدة سور: الأعراف (٥٩، ٦٥، ٧٣. ٨٥)، وهود (٥٠، ٦١، ٨٤)، والمؤمنون (٢٣، ٣٢).

أوائل القصص، في سورة (هود)، وقصة نوح في سورة (المؤمنون)، وغيرها من القصص، يذكر الله أن الرسل يبدؤون دعوتهم لأممهم بقولهم: ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾.

وهكذا أيضًا استمر نبينا محمد ﷺ يدعو إلى هذا التوحيد عشر سنين، لم تُفرض عليه العبادات، إنما يدعوهم إلى التوحيد، ويخبرهم بأنه الدين الذي أمروا به، ذكر الله ذلك له في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة: ٥]، أي: يجعلوا دينهم كله خالصًا لله ربهم، وكذلك قوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ١١]، إلى قوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ۝ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ﴾ [الزمر: ١٤، ١٥]، وقال الله تعالى: ﴿ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [غافر: ١٤]، وإخلاص الدين: تصفيته من شوائب الشرك والبدع والمعاصي ونحو ذلك، فهذا توحيد الألوهية.

وذلك لأن المشركين يعترفون بتوحيد الربوبية، ولما اعترفوا به صار حجة عليهم في توحيد الألوهية، وبيان أنهم إذا عرفوا ربهم وجب عليهم أن يخلصوا له العبادة، لقوله تعالى: ﴿ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الزمر: ٢]، ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾[الزمر: ٣]، أي: له وحده أن تقروا بأن الله الذي خلقكم، والذي خلق السموات والأرض، والذي خلق الأزواج كلها، والذي يدبر الأمر، ويسير الأفلاك، ويسير الشمس والقمر، ويخرج الحي من الميت، والميت من الحي، تعترفون بذلك، وإذا اعترفتم به فلابد أن تخلصوا له الدين، وأن تجعلوا جميع عباداتكم لله تعالى وحده، هذا هو الذي دعاهم إليه مدة عشر سنين، وهو يكرر توحيد الإلهية، ويسمى أيضًا توحيد العبادة، وذلك لأن الذين يدينون به

يتقربون بالتعبد الذي هو التذلل، والخضوع لله سبحانه وتعالى، بمعنى أنهم يخضعون لله، ويخشعون له، ويتواضعون بين يديه، هذا هو التعبد، وهو مشتق من التذلل، تعرف العرب أن التعبد هو: التذلل، فيقول شاعرهم:

تُبَارِي عِتَاقاً نَاجِيَاتٍ وأَتْبَعَتْ وظِيْفاً وظِيْفاً فَوْقَ مَوْرٍ مُعَبَّدِ[1]

ويُقال: طريق معبد أي: مذلل بوطء الأقدام، ومنه سمي المملوك عبدًا؛ لأنه ذليل لسيده الذي يملكه، ولما كان كذلك كان الخلق عبيدًا لله، ولذلك يناديهم بهذا الاسم كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر: ٥٣]، يصفهم بأنهم عباده، فهم عبيد، والخلق كلهم عبيد لله تعالى، بمعنى أنهم ذليلون لربهم، فهو الذي يتصرف فيهم، يميت ويُحيي، ويمنع ويعطي، ويسعد ويشقي، ويصل ويقطع، ويخفض ويرفع، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، فالخلق عبيده، شاؤوا أم أبوا، فالكفار عبيد مملوكون له، ولو ادعوا لأنفسهم أنهم أحرار، نقول: إنكم مملوكون للخالق الذي خلقكم، فأنتم عبيد، والمؤمنون يدينون لله تعالى بعبادته ويقولون في صلاتهم﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، يمتثلون قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، أي: تذللوا له، فهذا التوحيد.

وقد ذكر الله عاقبة عباده المخلصين؛ لأنهم أصفياؤه في قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، إلى آخر تلك الصفات، هؤلاء عبادتهم خاصة وهو طاعته، ومثله أيضًا قوله تعالى: ﴿عَيْنًا

---

(١) هذا البيت من معلقة طرفة بن العبد، تباري: تسارع، والوظيف: عظم الساق والذراع، والمور: الطريق.

﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦]، هؤلاء هم العباد المخلصون، أي: تلك العين في الجنة يشرب بها، يعني يروى بها العباد المخلصون، فسماهم عباد الله؛ لأنهم عبدوه وأخلصوا له العبادة.

يقول المؤلف -رحمه الله تعالى-: «وَهُوَ: إِفْرَادُه وَحْدَهُ بِأَجْنَاسِ الْعِبَادَةِ وَأَنْوَاعِهَا»، أنواع العبادة كثيرة ذكر بعضها الشيخ محمد بن عبدالوهاب -رحمه الله- في كتابه (ثلاثة الأصول)، فيقول: «وأنواع العبادة التي أمر الله بها مثل: الإسلام، والإيمان، والإحسان، ومنه: الدعاء، والخوف، والرجاء، والتوكل، والرغبة، والرهبة، والخشوع، والخشية، والإنابة، والاستعانة، والاستعاذة، والاستغاثة، والذبح، والنذر، وغير ذلك من أنواع العبادة، التي أمر الله بها كلها لله تعالى... فمن صرف منها شيئًا لغير الله، فهو مشرك كافر»[1]، وذكر لكل واحدة دليلاً، فهناك دليل العبادة من حيث هي، ودليل الدعاء، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، وذكر أدلة الرجاء، والخوف، والتوكل، والاستعانة، والاستغاثة، والخشوع، والرغبة، والرهبة، من الآيات القرآنية، ومن الأحاديث كقوله ﷺ: **(وإذا استعنت فاستعن بالله)**[2].

فكلها يجب الإخلاص فيها لله، وألا نخاف إلا الله، يعني خوف السر الذي هو حق الله تعالى، بخلاف الخوف الطبيعي، فإن الإنسان يخاف من الأمراض، ومن السباع، ومن الهوام، والحشرات، فيبتعد عنها ويتحصن، ولكن المراد خوف السر الذي يحمل على تعظيم المخوف منه.

---

(١) ثلاثة الأصول ضمن مجموعة مؤلفات الشيخ محمد بن عبدالوهاب ص١٨٨.

(٢) أخرجه أحمد ١/٢٩٣، والترمذي (٢٥١٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وكذلك الرجاء الذي هو تعلق القلب بالله تعالى، وكذلك التوكل إلى آخرها، فكل هذه من أنواع العبادة التي يجب إفرادها لله سبحانه وتعالى.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَإِفْرَادُهَا مِنْ غَيْرِ إِشْرَاكٍ بِهِ فِي شَيْءٍ مِنْهَا»، ولما ذكر الله أمثلة لها، ذكر أنها خاصة به في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، أي: اجعلوا الخوف خاصًا بربكم، وكقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقوله: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، أي: أخلصوا له الدعاء ونحوه، فيجب إفرادها لله من غير إشراك به في شيء منها.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَعَ اعْتِقَادِ كَمَالِ أُلُوهِيَّتِهِ»، أي: أنه الإله وحده، أي: كمال ألوهية الله تعالى التي هي اعتقاد أنه الإله الحق، كما تدل على ذلك كلمة (لا إله إلا الله)، وهذا هو معنى حقيقة كمال الألوهية، أي: استحقاقه للعبادة، وأن يحبه العباد ويرجوه ويتوكلوا عليه، ويصرف ذلك كله لله وحده، وقد خالف في ذلك القبوريون الذين جعلوا مع الله معبودات، وأضافوا لها شيئًا، أو جعلوا لها شيئًا من حق الله تعالى، فعبدوها مع الله، ولاشك أن هذا جهل بمعنى كلمة (لا إله إلا الله)، فإنهم فسروها بأن الله هو الخالق، (لا إله) يعني لا خالق إلا الله، ولو كان كذلك لما امتنع المشركون من هذه الكلمة، لكنهم امتنعوا وقالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ [ص: ٥]، مع أنهم يعترفون بأن الله هو الخالق، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ومع ذلك قالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾، وقالوا: ﴿أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾ [ص: ٦]، فتمسكوا بمعبوداتهم، وسموها آلهة، فدل ذلك على أن هذا هو معنى (لا إله إلا الله)، الذي هو توحيد العبودية، وليس معناها إثبات الخالقية لله تعالى، فالمشركون امتنعوا أن يقولوا: (لا إله إلا الله)؛ لأنهم اتخذوا آلهة يعبدونهم،

وكذلك كان لقوم نوح آلهة يعبدونها، ولقوم إبراهيم يسمونها آلهة؛ ولهذا قالوا: ﴿مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ﴾ [الأنبياء: ٥٩]، ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٢]، ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، فدل على أنهم يعرفون حقيقة الإله وهكذا يسمونه.

وعلى كل حال فإن توحيد الألوهية هو التوحيد المهم، وهو الذي دعت إليه الرسل، وهو الذي قاتل عليه النبي ﷺ، وجردت لأجله سيوف القتال، ونصب الجهاد؛ لأنهم منكرون له، ولما أنكروه، صاروا بذلك مشركين، يعبدون مع الله آلهة أخرى، فهذا هو السبب، ووقع الخلاف أيضًا فيه، ووقع الخلل فيه في القرون المتأخرة، في القرن التاسع والعاشر والحادي عشر، ودعا إليه مجددًا الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله ووضع عليه كتابه الذي هو كتاب (التوحيد)، فإن موضوعه توحيد العبادة، وصنف في ذلك رسائل كثيرة، تبين حقيقة هذا التوحيد، وتكلم أيضًا عليه من المتقدمين الإمام ابن تيمية رحمه الله فتعرض له في كتابه الكبير (اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم)، وكذلك في رسالته التي تسمى (التوسل والوسيلة)، فإنها في هذا الموضوع، وكذلك ابن القيم -رحمه الله تعالى- في فصل من فصول كتابه (إغاثة اللهفان)، فإنه أيضًا تعرض لذلك، وذكر أن هذا من كيد الشياطين وتلبيس إبليس، وأورد الأدلة والأمثلة الكثيرة على ذلك، وكذلك أيضًا أئمة الدعوة جدوا واجتهدوا في هذا.

فلذلك نقول: إن توحيد الإلهية هو أهم التوحيد، ونتواصى بتحقيقه، وأن ندين فيه لله تعالى؛ لنكون بذلك من الذين ينطبق عليهم قول الله تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣].

فَدَخَلَ فِي تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ إِثْبَاتُ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، وَأَنَّهُ مَا شَاءَ اللهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّهُ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ، وَمَا سِوَاهُ فَقِيرٌ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ.

وَدخَلَ فِي تَوْحِيدِ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، إِثْبَاتُ جَمِيعِ مَعَانِي الأَسْمَاءِ الْحُسْنَى للهِ تَعَالَى، الْوَارِدَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

وَالإِيمَانُ بِهَا ثَلاثُ دَرَجَاتٍ:

إِيمَانٌ بِالأَسْمَاءِ.

وَإِيمَانٌ بِالصِّفَاتِ.

وَإِيمَانٌ بِأَحْكَامِ صِفَاتِهِ.

كَالْعِلْمِ بِأَنَّهُ عَلِيمٌ ذُو عِلْمٍ، وَيَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ، قَدِيرٌ ذُو قُدْرَةٍ، وَيَقْدِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.. إِلَى آخِرِ مَا لَهُ مِنَ الأَسْمَاءِ الْمُقَدَّسَةِ.

الشرح:

لما ذكر المؤلف -رَحِمَهُ اللَّهُ- أقسام التوحيد، وكان قد بدأ بتوحيد الربوبية، ذكر ما يُلحق بها وما يدخل فيها، قال -رَحِمَهُ اللَّهُ-: «فَدَخَلَ فِي تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ إِثْبَاتُ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ»، القدر: قدرة الله تعالى، والقضاء: ما قضاه، وما حكم به في الأزل، فهذا داخل في توحيد الربوبية، فإذا أقررنا بأنه رب كل شيء، وخالق كل شيء، ومدبر كل شيء، فإننا نؤمن بتمام قدرته، وأنه القادر على كل شيء، وكذلك نؤمن بأنه قضى في الأزل ما كان وما يكون، كما جاء في قوله ﷺ: **(إِنَّ أَوَّلَ ما خَلَقَ الله الْقَلَمَ، فقال له: اكْتُبْ، قال: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قال: اكْتُبْ**

مَقَادِيرَ كلِ شَيْءٍ حتى تَقُومَ السَّاعَةُ)[1]، قيل: إن هذا قبل أن يخلق الله السموات والأرض، بخمسين ألف سنة، كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: **(كَتَبَ الله مَقَادِيرَ الْخَلائِقِ قبل أنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَعَرْشُهُ على الْمَاءِ)**[2]. ليس بالألف ولا بنصف ألف، فنؤمن بذلك.

ومن أدلته قول النبي ﷺ في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: **(وَاعْلَمْ أن الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا على أن يَنْفَعُوكَ لم يَنْفَعُوكَ إلا بشيء قد كَتَبَهُ الله لك، وَلَوِ اجْتَمَعُوا على أن يَضُرُّوكَ لم يَضُرُّوكَ إلا بشيء قد كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ، رُفِعَتْ الأَقْلامُ، وَجَفَّتْ الصُّحُفُ)**، أي: أن الضر والنفع مكتوب على الإنسان، ولو فعل ما فعل، ولو تحصن، لابد أن ما كُتب عليه فإنه يكون ويحصل من ضر أو نفع أو نحو ذلك، ومع ذلك فإنه مأمور بأن يتحفظ، ويكون تحفظه مما كُتب عليه، ومأمور بأن يلبس ثياب الشتاء، حتى لا يضره البرد، ومع ذلك مكتوب عليه، وكذلك مأمور بطلب الرزق، وهو مكتوب عليه، ومأمور بتغذية البدن، وذلك مكتوب عليه، ومأمور بالنكاح؛ ليحصل له الولد وذلك أيضًا مكتوب عليه، كما أنه مأمور بالعبادات، وهي أيضًا مكتوبة عليه، ومنهي عن المعاصي، وهي مكتوبة عليه، ولكن يثيبه الله على الطاعات، ولو كانت مخلوقة فيه، ويعاقبه على المعاصي، ولو كانت مخلوقة فيه، وما أشبه ذلك.

قوله -رحمه الله-: «وَأَنَّهُ مَا شَاءَ اللهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ»، يعتقد أهل

---

(١) أبو داود (٤٧٠٠)، والبيهقي ١٠/٢٠٤ من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٥٣)

السنة أن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، والمشيئة ها هنا هي الإرادة القدرية، والقدر يدخل فيه قدرة الله تعالى على كل شيء، ويدخل فيه إرادته، وقد ذكر العلماء أن إرادة الله قسمان:

الأولى: إرادة دينية شرعية، وهي: أنه أراد من العباد كلهم أن يعبدوه، ويوحدوه، ويطيعوه، ويستسلموا لأمره، ويصلوا، ويصوموا، ويفعلوا العبادات، وأراد منهم أن يتركوا جميع المحرمات، التي حرمها عليهم، فمنهم من فعل ومنهم من لم يفعل، وهذه الإرادة الشرعية لا يلزم وقوع مرادها.

الثانية: إرادة قدرية كونية، فهذه يقع مرادها، فيؤمن أهل السنة أن الله تعالى أراد جميع ما في الكون من الطاعات والمعاصي، ومن الحوادث والنوازل ونحوها، إرادة كونية قدرية، بمعنى أنه لو لم يشأ ما حصلت، وهذه هي الإرادة الكونية القدرية، وهي معنى قولهم: **«مَا شَاءَ اللهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ»**، أي: أن لله تعالى المشيئة الكاملة، فما شاءه كان ولابد، وما لم يشأ فإنه لا يكون أبدًا، فلا يكون في الوجود إلا ما يريد، كما في قول الله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [المدثر: ٥٥ - ٥٦]، فلا يقدرون على أن يتذكروا إلا إذا شاء الله تذكرهم، وقال عز وجل: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٢٩ - ٣٠]، فأثبت لهم مشيئة، وذكر أن مشيئتهم مربوطة بمشيئة الله تعالى، وقال جل وعلا: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [التكوير: ٢٨ - ٢٩]، فأثبت لهم مشيئة، وذكر أنها مرتبطة بمشيئة الله، لو شاء ما حصل منهم هذا الفعل ونحوه.

قوله -رحمه الله-: «وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»، يؤمن أهل السنة بأن الله على

كل شيء قدير، لا يخرج شيء عن قدرته، فمن قدرته خلق هذه المخلوقات، فإنها خُلقت بقدرته، وكذلك أفعالهم، يهدي من يشاء كونًا وقدرًا، ويضل من يشاء لحكمة عظيمة، الله أعلم بها، بمعنى أن له القدرة التامة، بحيث إنه لا يخرج شيء عن قدرته وإرادته.

قوله - رحمه الله -: «وَأَنَّهُ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ، وَمَا سِوَاهُ فَقِيرٌ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ»، كذلك نؤمن بأنه الغني الحميد، وهذا مما يدخل في اسم الربوبية، فالله تعالى هو الغني عما سواه، وكل ما سواه فإنه فقير إليه، قال الله تعالى: ﴿فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦]، يعني: أنه غني بالذات، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]، وصف نفسه بأنه الغني، وقال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، فكل ما سوى الله تعالى فإنه فقير إليه، لا أحد يستغني عن الله تعالى طرفة عين، بل العباد محتاجون إلى ربهم، والرب غني عنهم ولكنه، يبتليهم بهذه الطاعات، وبهذه الأوامر؛ ليتبعوا إرشادات ما يأمرهم به على لسان رسله، وإلا فإنه سبحانه غني وهم الفقراء، ولاشك أن الغني هو الذي لا يحتاج إلى غيره، فالله تعالى لا يحتاج إلى عبادة المخلوقين، بمعنى أنه ليس بحاجة إلى أن يعبده هؤلاء، بل الأصل أنه غني عن عبادتهم، ولكن خلقهم وابتلاهم؛ ليظهر من يطيعه ومن يعصيه.

ثم قال الشيخ - رحمه الله -: «وَدخَلَ فِي تَوْحِيدِ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، إِثْبَاتُ جَمِيعِ مَعَانِي الأَسْمَاءِ الْحُسْنَى للهِ تَعَالَى، الْوَارِدَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ»، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾

[الأعراف: ١٨٠]، ﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ أي: بأسمائه، يا الله، يا رحمن، يا رحيم، يا ملك، يا قدوس، يا سلام، يا مؤمن، يا مهيمن، ونحو ذلك، هذا مقتضى أسمائه، إذا عرفنا أن له الأسماء الحسنى، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠] يعني: أن هذين الاسمين: الله والرحمن من أسمائه الحسنى، ومع ذلك الله تعالى له الأسماء الحسنى، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [طه: ٧- ٨]، وقال جل وعلا: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الحشر: ٢٤]، فذكر أن له الأسماء الحسنى، بمعنى أنه تسمى بالأسماء الحسنى، فكل الأسماء التي سمى الله بها نفسه، فإنها من الأسماء الحسنى، وهذه الأسماء نثبتها لله تعالى، وهي موجودة بأدلتها في الكتاب والسنة، وقد قال النبي ﷺ: **«إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إلا وَاحِدًا من أَحْصَاهَا دخل الْجَنَّةَ»**[1]، ثم سرد هذه الأسماء الترمذي في روايته لهذا الحديث، وكذا غيره - أي: بعض الذين خرجوا الحديث - ولكن ذكر الترمذي أن سرد الأسماء ليس مرفوعًا، وأنه موقوف، وأن بعض العلماء حاول أن يجمعها، فجمعها من القرآن أو من الأحاديث، وحرص على أن تكون تسعة وتسعين، وبدأ بالأسماء العشرة أو الثلاثة عشر التي في آخر سورة (الحشر): ﴿هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾، ﴿ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُ﴾، ﴿ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُ﴾، والجمهور على أن أسماء الله كثيرة ليست محصورة في تسع وتسعين؛

---

(١) سبق تخريجه.

لأن الله تعالى أجمل في قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ثم ثبت أن النبي ﷺ في حديث سؤال الله تعالى: (**بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ**)[1]، فدل على أن هناك أسماء استأثر الله بها لم يطلع عليها أحدًا، فهي داخلة في هذه الآية: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨].

قوله - رحمه الله -: «وَالإِيمَانُ بِهَا ثَلاثُ دَرَجَاتٍ»، ذكر الشيخ - رحمه الله - أن الإيمان بالأسماء الحسنى ثلاثة درجات:

أولاً: (إِيمَانٌ بِالأَسْمَاءِ).

ثانيًا: (وَإِيمَانٌ بِالصِّفَاتِ).

ثالثًا: (وَإِيمَانٌ بِأَحْكَامِ صِفَاتِهِ).

فنحن نؤمن بجميع الصفات التي نعرفها، وكذلك أيضًا بالصفات المستنبطة من تلك الأسماء، وذلك أن العلماء ذكروا أن كل اسم من أسماء الله تعالى، فإن له ثلاث دلالات:

الأولى: الدلالة على ذات الله، وتُسمى (دلالة مطابقة).

والثانية: الدلالة على إثبات الصفة التي اشتُق منها ذلك الاسم، وتُسمى (دلالة تضمن)، ومعناها: أن الصفة في ضمن ذلك الاسم، فالرحمن في ضمنه الرحمة، والعزيز في ضمنه العزة، والعظيم في ضمنه العظمة، والعلي في ضمنه العلو، والقدير في ضمنه القدرة، والعليم في ضمنه العلم، يتضمن هذه الصفة.

---

(١) تقدم تخريجه.

والثالثة: الدلالة على بقية صفات الله تعالى، وتُسمى (دلالة الالتزام)، وهي من حيث كمال الصفة، فإننا نقول: إذا أثبتنا - مثلاً - الرحمة، نقول: يلزم من كونه رحماناً أن يكون قديرًا، ويلزم من كونه رحماناً أن يكون غنيًا، ويلزم من كونه رحماناً أن يكون عليمًا، ويلزم من كونه رحماناً أن يكون قديرًا، وأن يكون كبيرًا، وأن يكون جليلاً .. إلى آخر ذلك، هذه دلالة التزام.

فإذا قلنا - مثلاً -: الرحمن، هذا الاسم:

أولاً: يدل على الله، فهو يدل على ذات الله تعالى، وأن من أسمائه الرحمن، فهو دال على ذات الله تعالى دلالة مطابقة.

ثانيًا: كذلك فهو يدل على الصفة التي تؤخذ منه، وهي صفة الرحمة، فإنها صفة من صفات الله تعالى تؤخذ من هذا الاسم (الرحمن الرحيم)؛ ولهذا قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: (الرحمن والرحيم اسمان رقيقان، أحدهما أرق من الآخر)[1]، فالرحمن دال على صفة الرحمة، وكذلك الرحيم، قال بعضهم: الرحمن رحمة عامة لجميع المخلوقات، والرحيم رحمة خاصة بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

ثالثًا: يدل على بقية الصفات.

فالإيمان يلزم بأحكام الصفات يعني: بدلالاتها.

ثم ذكر مثالاً فقال: **(كَالْعِلْمِ بِأَنَّهُ عَلِيمٌ ذُو عِلْمٍ، وَيَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ)**، يعني: من أسمائه العليم، فالعليم دال على العلم، فيوصف الله تعالى بالعلم، وقد أقر بذلك الأشاعرة وأنكره المعتزلة، وبالغوا في إنكار الصفات كلها، والله تعالى

(١) تفسير البغوي ١/ ٣٨، وتفسير القرطبي ١/ ١٠٦، وفتح الباري ١٣/ ٣٥٩.

وصف نفسه بالعلم﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التغابن: ١١]، وقال عز وجل: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ [سبأ: ٢]، وقال جل وعلا: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فالآيات كثيرة في إثبات العلم، فمن اسمه العليم، وهو يدل على إثبات العلم، وأنه تعالى ذو علم، وأنه عليم بكل شيء، هذا من صفة العلم.

قوله - رَحِمَهُ اللَّهُ -: «قَدِيرٌ ذُو قُدْرَةٍ، وَيَقْدِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ»، يعتقد أهل السنة أن الله تعالى قدير، كما أخبر عن نفسه بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٠]، وقدرة الله تعالى عامة، لكل الممكنات والموجودات، ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، يعني: بقدرة كاملة، كذلك يقدر على كل شيء.

هذا مثال العلم والقدرة، فالعلم دل عليه اسم العليم، والقدرة دل عليها اسم القدير، فنحن نعلم ونوقن ونعتقد كمال علم الله تعالى، والأدلة الدالة على ذلك كثيرة، مثل قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ونحوها كثير.

وَدَخَلَ فِي ذَلِكَ إِثْبَاتُ عُلُوِّهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَاسْتِوَائِهِ عَلَى عَرْشِهِ، وَنُزُولِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا عَلَى الْوجْهِ اللائِقِ بِجَلالِه وَعَظَمَتِهِ.

وَدَخَلَ فِي ذَلِكَ: إِثْبَاتُ الصِّفَاتِ الذَّاتِيَّةِ لا يَنْفَكُّ عَنْهَا: كَالسَّمْعِ، وَالْبَصر، وَالْعِلْمِ، وَالْعُلُوِّ، وَنَحْوِهَا.

الشرح:

كل هذه داخلة في توحيد الأسماء والصفات، وهو الذي أنكره المعتزلة والمعطلة، وأنكر كثيرًا منه الأشاعرة، والماتريدية، والكرامية، ونحوهم، فيدخل في توحيد الأسماء والصفات (**إِثْبَاتُ عُلُوِّهِ عَلَى خَلْقِهِ**)، أي: علو الله تعالى على خلقه، (**وَاسْتِوَائِهِ عَلَى عَرْشِهِ، وَنُزُولِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا**)، وأدلة ذلك ثابتة بالأدلة السمعية، وبالأدلة العقلية أيضًا، وقد كبرت هذه الأدلة على هؤلاء المعطلة، لما رأوا أنها أدلة واضحة مخالفة لمعتقدهم، ضاقت بهم فسلطوا عليها التأويلات، فبالنسبة إلى علو الله، هذا ثابت بالعقل، وثابت بالسمع، دلت عليه آيات العلو، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾[البقرة: ٢٥٥]، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾[النساء: ٣٤]، وقوله جل وعلا: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[الشورى: ٥١]، وقوله عز شأنه: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، وقوله عز من قائل: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الليل: ٢٠]، هذه فيها إثبات صفة العلو، ويعم ذلك أنواع العلو وهي ثلاثة:

الأول: علو القدر.

الثاني: علو القهر.

الثالث: علو الذات.

وأكبر ما أنكروا علو ذات الله تعالى، كونه بذاته فوق مخلوقاته، عاليًا عليهم، وأولوا العلو في قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، بأنه علو القهر، وقالوا: إنه يتصور ويطلق عليه علو، كما قاله فرعون: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، يريد علو القهر، ولكن جاءت أدلة تدل على أن المراد أنواع العلو الثلاثة، فمن ذلك آيات الرفع في قوله تعالى: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وقوله عز وجل: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨]، وقوله جل وعلا: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، فإن الرفع لا يكون إلا إلى أعلى، وآيات الصعود، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، وآيات العروج، كما في قوله عز وجل: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤]، وقوله جل وعلا: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة: ٥]، والعروج لا يكون إلا إلى أعلى، وآيات النزول وإنزال الشيء منه، كقوله جل وعلا: ﴿مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ [الأنعام: ١١٤]، وقوله عز وجل: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ١]، والإنزال لا يكون إلا من أعلى، وآيات ذكر السماء، كما في قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ۝١٦ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ [الملك: ١٦، ١٧]، ونحو ذلك من الآيات، ولكن سلطوا عليها التأويلات، وسلطوا عليها التحريف، ثم كبرت عليهم أيضًا آيات الاستواء على العرش، وأكثرهم فسروا الاستواء بالاستيلاء، وأنشدوا بيتًا مختلقًا، يقول فيه الشاعر - على ما زعموا -:

قد استوى بشر على العراق ... من غير سيف ودم مهراق[1]

ولكن البيت لا أصل له؛ فلذلك لا يستدل به، وإذا نظرت فإن الاستواء في

---

(١) تفسير القرطبي ٧/ ٢٢٠، فتح الباري ١٣/ ٤٠٥، وفي بعض الكتب نسب البيت للأخطل النصراني.

قوله: **(قد استوى)**، يعني: قد علا وارتفع على الكرسي في العراق ونحوه.

وتسلط بعضهم على كلمة العرش، وقالوا: إن العرش هو الملك، استوى على الملك، يعني ليس هناك عرش مخلوق فوق السموات، أنكروا ذكر العرش، مع أن الله تعالى قد ذكره في آيات، كقوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ﴾ [الحاقة: ١٧]، وقوله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ [غافر: ٧]، وقوله جل وعلا: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ [الزمر: ٧٥]، وقوله عز من قائل: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ [غافر: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩]، وقوله عز وجل: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦]، وقوله جل وعلا: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥]، ونحو ذلك كثير؛ فلذلك أثبته أهل السنة، وفسروه بتفاسير أربعة، كلها متقاربة:

الأول: الاستواء بمعنى الاستقرار، استقر على العرش.

الثاني: بمعنى العلو على العرش.

والثالث: بمعنى الارتفاع، ارتفع فوق العرش.

والرابع: بمعنى الصعود، صعد على العرش.

وكلها دالة على صفة العلو، نظمها ابن القيم - رحمه الله - في (نونيته) بقوله:

فلهم عبارات عليها أربع ... قد حُررت للفارس الطَعّان

وهي استقر وقد علا وكذلك ار ... تفع الذي ما فيه من نكران

وكذاك قد صعد الذي هو رابع ... وأبو عبيدة صاحب الشيباني

يختار هذا القول في تفسيره ... أدرى من الجهمي بالقرآن[1]

---

(١) قصيدة ابن القيم مع شرح ابن عيسى ١/٤٤٠.

فهكذا تكون أدلة العلو لله سبحانه وتعالى، ومن أدلة العلو أحاديث النزول، وأحاديث المجئ، ثبت النزول في قوله تعالى: ﴿مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ﴾[الأنعام: ١١٤]، وفي الحديث روي عن عشرة من الصحابة: **(يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إلى السَّمَاءِ الدُّنْيَا)**[1] على الوجه الذي يليق بجلالته وعظمته، وقد كبر هذا الحديث على المعطلة، فأنكروا النزول، ولما كان كذلك أوردوا عليه كل إيراد، وكل شبهة، وقد شرحه شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - في رسالة كبيرة باسم (شرح حديث النزول)، وحقق ما يحتاج إليه، وما قيل فيه، وأجاب عن كل الشبهات.

وقد تكلم العلماء على صفة العلو، ووضحوا ما فيها، وبينوا أدلتها، كابن القيم -رحمه الله- في كتابه الذي رد فيه على المعطلة، وقد سماه (اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية)، وفي كتابه الكبير الذي سماه (الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة) وقد طبع بعضه، واختصره الموصلي، وكلها واضحة في الدلالة، وأشار إلى ذلك ابن تيمية في رسالته (الحموية).

فالحاصل أن: أهل السنة اعترفوا بهذه الصفة، التي هي صفة العلو.

قال رحمه الله: **(وَدَخَلَ فِي ذَلِكَ: إِثْبَاتُ الصِّفَاتِ الذَّاتِيَّةِ لا يَنْفَكُّ عَنْهَا: كَالسَّمْعِ، وَالْبَصر، وَالْعِلْمِ، وَالْعُلُوِّ، وَنَحْوِهَا)**، هذه صفات ذاتية وفعلية، يعني: السمع صفة فعلية، وإثباته ذاتية، وكذلك البصر يثبت بالفعل، أن الله يبصر ويرى، والعلم يثبت بالفعل أن الله يعلم، والعلو يثبت أن الله تعالى فوق العباد، وأنه هو العلي الأعلى، ومن الصفات الفعلية، صفة الوجه،

---

(١) سبق تخريجه.

واليد، والعين، وما أشبهها، هذه صفات ذاتية لا ينفك عنها الموصوف، أي: فهي من جملة الذات.

والمعطلة الذين أنكروا ذلك، كالمعتزلة والفلاسفة ونحوهم يقولون: إن أخص صفة من صفات الله هي صفة القدم، بمعنى أنه قديم لم يسبق بعدم، ولما كان كذلك، قالوا: لا نثبت معه صفات؛ لأنا لو قلنا: إنها صفات له؛ لتعدد القدماء، إذا قلنا - مثلاً - إن ذات الله قديم، وإن السمع قديم، والعلم قديم، والكلام قديم، والبصر قديم، فيكون عندنا قدماء كثير وليس القديم واحدًا.

والجواب: أن القدم صفة ذاتية، وأنه يعم الذات بصفاتها، فإن هذه الصفات من جملة الذات، كما أنها من جملة ذات الإنسان، والإنسان موصوف بها وهي من جملة ذاته، فتقول- مثلاً -: جاء زيد، ولا تحتاج إلى أن تذكر صفاته، لا تقول: جاء زيد ووجهه ورأسه ويده وقدمه؛ لأن هذه كلها داخلة في اسم الذات، فنقول: الله تعالى قديم بذاته، وقديم بصفاته، فسمعه من ذاته، وبصره من ذاته، ووجهه من ذاته، ويده وعينه ونحو ذلك، كلها داخلة في الذات، فلا يُقال: إن هناك تعدد القدماء.

ذكر العلماء الكلام على هذه الصفات، وبينوا أنها صفات حقيقية، فالسمع قد ذكره الله بلفظ الماضي، وبلفظ المضارع، وبالاسم في آية واحدة، قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]، فأثبته بالماضي (سَمِعَ)، وبالمضارع (**وَاللَّهُ يَسْمَعُ**)، وبالاسم (**إن اللَّهَ سَمِيعٌ**)، والسمع في الأصل: هو إدراك الأصوات، والإنسان يوصف بذلك، قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ

﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ١ - ٢]، فأخبر بأنه سميع بصير، ولكن سمع الإنسان، وسمع المخلوق محدود، لا يسمع إلا ما قرب منه، أما الله تعالى فإنه يسمع كل شيء، يسمع القريب والبعيد، ولا تشتبه عليه الأصوات، ولا تغلطه كثرة المسائل مع اختلاف اللغات وتفنن المسؤلات.

كذلك صفة البصر أثبتها الله تعالى بعدة عبارات، فأثبتها بالاسم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾، ولما كان المعتزلة يدعون أن إثبات هذه الصفات تشبيه، عند ذلك رد الله عليهم في آية واحدة، فيها نفي الشبيه، وفيها إثبات الصفات، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، ردًا على المشبهة، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، ردًا على المعطلة، فأثبته بالاسم (البصير)، وأثبته أيضًا بالأفعال بهذا المعنى، مثل قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[طه: ٤٦]، هذا بلفظ الفعل، وقوله عز وجل: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الشعراء: ٢١٨]، أثبته أيضًا بالفعل، وكقوله جل وعلا: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤]، فالبصر: إدراك المبصرات، والله تعالى موصوف بذلك، ولا يستر بصره حجاب، يبصر كل شيء ولو احتجب الإنسان بكل الحجب، لم يمنع ذلك أن يراه ربه ويبصره.

وكذلك صفة العلم، صفة ذاتيه وفعلية، ذكرها الله تعالى بالاسم، بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٥]، وقوله عز وجل: ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ في آيات عديدة، وذكرها بالفعل في قوله جل وعلا: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ [سبأ: ٢]، وقوله جل شأنه: ﴿فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]، وقوله عز من قائل: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، وكذلك

بالماضي في قوله تعالى: ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ﴾ [المزمل: ٢٠]، ونحو ذلك، فجاءت بالاسم، وبالفعل الماضي، وبالمضارع.

وكذلك أيضًا من الصفات الذاتية: صفة العلو، وبالأخص علو القدر، وعلو القهر والغلبة.

ومن الصفات الذاتية: صفة الوجه، ثبت في قوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص: ٨٨]، وقوله عز وجل: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٧]، وقوله جل وعلا: ﴿ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [الليل: ٢٠]، وقوله جل شأنه: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ ﴾ [الإنسان: ٩]، ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الكهف: ٢٨]، ونحو ذلك، وقد حرفها كثير وقالوا: إن المراد بالوجه إطلاقه على الذات، ونحن نقول: إنه صفة لله تعالى، نثبتها كما أثبتها الله، ولا نؤلها، ولا نشبهها بصفات المخلوقين، وقد وضحها النبي ﷺ في قوله: (**حِجَابُهُ النُّورُ لو كَشَفَهُ لأَحْرَقَت سُبُحَاتُ وَجْهِهِ ما انْتَهَى إليه بَصَرُهُ من خَلْقِهِ**)(١)، هكذا أثبت صفة الوجه، وأخبر بأنه صفة ذاتية، وأخبر بأن له سبحات، ونحو ذلك.

ومن الصفات الذاتية صفة اليد، ذكرها الله تعالى بلفظ المفرد في قوله تعالى: ﴿ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ﴾ [آل عمران: ٢٦]، ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ [الملك: ١]، وذكرها بلفظ المثنى في قوله عز وجل: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقوله جل وعلا: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ [ص: ٧٥]، وذكرها بلفظ الجمع

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٩) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

لما أضيفت إلى ضمير الجمع في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ [يس: ٧١]، ووردت أيضًا بلفظ اليمين في قوله عز وجل: ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧].

وقد كثر تحريف المعتزلة والمعطلة لهذه الآيات، وأكثرهم على أن اليد القدرة، أو على أن اليد النعمة، ولكن ذلك صرف للفظ عن ظاهره، لا ننكر أن اليد تكون بمعنى النعمة، يقولون: فلان له يد عليَّ، ولكن المعنى أنه يعطيني بيده، ولما كان كذلك جاءت الأدلة أيضًا من السنة كثيرة، في قوله ﷺ: **(يد اللَّهِ مَلأَى لا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَّاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)**[1]، **(بيده القسط يخفضه ويرفعه)**[2]، وقال: **(إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ على مَنَابِرَ من نُورٍ عن يَمِينِ الرَّحْمَن عز وجل وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ)**[3]، من اليُمْنِ الذي هو البركة.

وأثبت له أيضًا الأصابع في قوله ﷺ: **(مَا مِنْ قَلْبٍ إلا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ إِنْ شَاءَ أَقَامَهُ وَإِنْ شَاءَ أَزَاغَهُ)**[4]، وقد ذكر هذا الحديث شيخ الإسلام في (التدمرية)، وذكر أن الذين ينكرون الصفات قالوا: نعم إنه ليس في قلوبنا أصابع الرحمن، نعرف أننا لا نحس بهذه الأصابع في قلوبنا، وأجاب بأن كلمة (بَيْنَ)، لا تقتضي المماسة، واستدل بقوله تعالى: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤١١) ومسلم (٩٩٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه عبدالله بن الإمام أحمد في «السنة» (٢/ ٤٦٢).

(٣) أخرجه مسلم (١٨٢٧) من حديث زهير.

(٤) أخرجه ابن ماجه (١٩٩)، وابن حبان (٣/ ٢٢٣)، والحاكم (١/ ٧٠٦) من حديث النواس ابن سمعان رضي الله عنه.

﴿ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤]، أن السحاب لا تمسه السماء، ولا تمسه الأرض، وكذلك (بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ)، فنقول: إنه كما جاء دون أن ننكره، ودون أن نقول: إنها كأصابع الإنسان، وفي حديث عبدالله ﵁ قال جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: «يا محمد، إنا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، الشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلائق كلها على إصبع، فيقول: أنا الملك» فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر ثم قرأ رسول ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[1] [الزمر: ٦٧].

ومن الصفات الذاتية: صفة العين، في قوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩]، أي: أمام عيني، وفي قوله عز وجل: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، وفي قوله تعالى عن السفينة: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]، والجمع لما أضيف إلى ضمير الجمع جُمعت أعين، وذكر النبي ﷺ عن الدجال: **(أنه أعْوَرُ وأن اللّهَ ليس بأعْوَرَ)**[2]، والأدلة على ذلك كثيرة.

فنثبت هذه الصفات الذاتية، ونؤمن بما تدل عليه، ولا نرد منها شيئًا، وكلها داخلة في توحيد الصفات.

---

(١) أخرج البخاري (٤٨١١)، ومسلم (٢٧٨٦).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٥٧) ومسلم (١٦٩) من حديث ابن عمر ﵄.

وَالصِّفَاتُ الْفِعْلِيَّةُ، وَهِيَ: الصِّفَاتُ الْـمُتَعَلِّقَةُ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ، كَالْكَلامِ، وَالْخَلْقِ، وَالرِّزْقِ، وَالرَّحْمَةِ، وَالاسْتِوَاءِ عَلَى الْعَرْشِ، وَالنُّزُولِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، كَمَا يَشَاءُ.

الشرح:

ذكر -رحمه الله- أن الصفات تنقسم إلى قسمين:

الأول: صفات ذاتية، وهي التي لا ينفك عنها، كالسمع، والبصر، والعلم، والقدرة، والوجه، والعين، ونحوها.

الثاني: صفات فعلية، وهي التي يفعلها إذا شاء، وتتعلق بمشيئته، إذا شاء خلق كذا، وإذا شاء رزق كذا، كالكلام، والخلق، والرحمة، والاستواء، والنزول كما يشاء، وجميع هذه الصفات نثبتها لله تعالى من غير تمثيل، ومن غير تعطيل، وسميت فعلية؛ لأنها أفعال يفعلها إذا شاء، يخلق ما يشاء متى شاء، فالخلق فعل، ويرزق من يشاء، والرزق فعل، يعني: ييسر لهذا الرزق، ويرزقه وهو خير الرازقين، والخلق والرزق فعل، والرحمة فعل قال تعالى: ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت: ٢١]، وقد تكون الرحمة أيضًا مخلوقة كالجنة قال عز وجل: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ﴾ [الشورى: ٨]، وخلق الله الرحمة مائة جزء كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(خلق الله مائة رحمة فوضع واحدة بين خلقه وخبأ عنده مائة إلا واحدة)**[1]. ولكن من صفته أنه يرحم من يشاء، وكذلك الاستواء والنزول ونحو ذلك، هذه كلها صفات فعلية.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٥٢).

قوله - رحمه الله - : **(كَالْكَلام)**، وأشهر الصفات الفعلية: صفة الكلام، نعتقد أن الله تعالى متكلم، ويتكلم إذا شاء، ويقول أهل السنة: إن كلام الله قديم النوع، متجدد الآحاد، أي: أنه قديم، جنس الكلام لم يُسبق بعدم، أي هو متكلم في الأزل كلامًا كما يشاء، ومن ذلك كلامه الذي هو القرآن، فإنه من كلام الله، وكذلك أيضًا كلامه الذي يُسمعه الأنبياء، كما يشاء، ويسمعه أيضًا الملائكة، فكلهم يسمعون كلام الله، كما يشاء، فقد جاء في الحديث قوله ﷺ: **(إذا أراد الله أن يوحي بالأمر، تكلم بالوحي، أخذت السموات منه رجفة - أو قال: رعدة - شديدة خوف أمر الله، فإذا سمع بذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجداً، فيكون أول من يرفع رأسه جبرائيل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد)**[1]. فأثبت أنه يتكلم **(تكلم بالوحي)**، وأثبت أنه يكلم جبريل عليه السلام، فدل على أنه يتكلم إذا شاء بما شاء.

ولما أن المعتزلة ونحوهم خُيل إليهم أن الكلام لا يكون إلا من الفم والشفتين واللسان واللهوات، أنكروا صفة الكلام، ثم تجاوزوا وأنكروا أن القرآن كلام الله، فأنكروا أن الله تعالى متكلم، وأن القرآن كلام الله، ولما احتج عليهم بالآيات، قالوا: إن القرآن مخلوق خلقه الله كما خلق الإنسان، وكما خلق بقية الأكوان، ولما قالوا ذلك واشتهر عنهم، أنكر عليهم العلماء والمحدثون، واستدلوا عليهم بالآيات مثل قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٥]، وقوله عز وجل: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة: ٦]،

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٢/٩١)، والطبراني في «مسند الشاميين» (١/٣٣٦) من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه.

وقوله جل وعلا: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥]، وما ورد أيضًا من أن كلام الله ليس له نهاية كقوله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧]، وكقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى﴾ [الكهف: ١٠٩]، وكقوله جل وعلا: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ [هود: ١١٩]، وغير ذلك من الآيات.

فيعتقد أهل السنة أن الله تعالى متكلم، ويتكلم إذا شاء، ويسمع كلامه من يشاء، وأن كلامه يكون له وقع شديد، ذكر أنه إذا تكلم بالوحي ارتجفت السموات، وكذلك فزع أهل السموات، وسجدوا لله، هذا دليل على أن كلام الله تعالى عظيم، وجاء في رواية: **(إذا قَضَى الله الأَمْرَ في السَّمَاءِ ضَرَبَتْ الْمَلائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَالسِّلْسِلَةِ على صَفْوَانٍ)**[1]. أي: يُسمع له صوت شديد، كل هذا في إثبات أن الله تعالى متكلم، وأنه يتكلم إذا شاء، وكتبه التي أنزلها على الأنبياء كلها كلام الله، ولا يحصي كلامه إلا هو، فيثبت أهل السنة صفة الكلام، وينكرون على من يردها، فالأشاعرة يقولون: إن كلام الله هو المعنى ليس هو اللفظ، ويتفقون مع المعتزلة في أنه لا يتكلم بكلام مسموع، حيث خُيل إليهم أن الكلام لا يخرج إلا من اللهوات ونحوها، فأنكروا الكلام واللفظ المسموع، وقالوا بالكلام النفسي، أي: أن كلام الله كلام نفسي، وأنه هو المعنى، وأن هذا القرآن عبارة أو حكاية عن كلام الله، لا أنه عين الكلام، ودائمًا يستدلون ويرددون بيتًا مكذوبًا يقولون: إنه للأخطل، يقول:

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٢٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

إِنَّ الكَلَامَ لَفِي الْفُؤَادِ وَإِنَّمَا جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الْفُؤَادِ دَلِيلاً

يعني أن اللسان ليس هو الذي يتكلم، إنما هو دليل، إذًا فالكلام هو الذي في الفؤاد، وقد أجاب شيخ الإسلام عن هذا البيت[1]، ونقله صاحب شرح الطحاوية[2]:

الجواب الأول: قال: ولو احتج محتج في مسألة بحديث أخرجاه في الصحيحين عن النبي ﷺ، لقالوا: هذا خبر واحد، ويكون مما اتفق العلماء على تصديقه، وتلقيه بالقبول، والعمل به، وهذا البيت لم يثبت نقله عن قائله بإسناد صحيح، لا واحد، ولا أكثر من واحد، ولا تلقاه أهل العربية بالقبول، «قيل: إنه موضوع منسوب إلى الأخطل، وليس هو في ديوانه»، فكيف يثبت به أدنى شيء من اللغة، فضلاً عن مسمى الكلام، أي: الأحاديث المسندة لا تقبلونها وهذا تقبلونه بدون إسناد؟!.

الجواب الثاني: وقيل: إنما قال: إن البيان لفي الفؤاد، وهذا أقرب إلى الصحة.

الجواب الثالث: وعلى تقدير صحته عنه، فلا يجوز الاستدلال به، فإن النصارى قد ضلوا في معنى الكلام، وزعموا أن عيسى -عليه السلام- نفس كلمة الله، واتحد اللاهوت بالناسوت، أي: شيء من الإله بشيء من الناس، أفيستدل بقول نصراني قد ضل في معنى الكلام على معنى الكلام، ويترك ما يعلم من معنى الكلام في لغة العرب؛ ولذلك يقول ابن القيم في النونية:

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/١٣٨).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (١/١٩٨).

وَدَلِيلُهُم فِي ذَاكَ بَيْتٌ قَالَهُ فِيمَا يُقَالُ الأَخْطَلُ النَّصْرَانِي[1]

يعني: فيما يُقال لا أنه ثابت.

ويقول شيخ الإسلام في اللامية:

قبح لِمَنْ نَبَذَ الكتاب وَرَاءَهُ وَإِذَا اسْتَدَلَّ يَقُولُ قَالَ الأَخْطَلُ[2]

الجواب الرابع: وأيضاً فمعناه غير صحيح، إذ لازمه أن الأخرس يسمّى متكلماً؛ لقيام الكلام بقلبه، وإن لم ينطق به، ولم يُسمع منه.

فنحن نقول: إن القرآن كلام الله، حروفه ومعانيه، كما صرح بذلك الأئمة، ومنهم شيخ الإسلام في الواسطية، ونقول: إن كلام الله تعالى كلام مسموع، وأنه ليس بمخلوق؛ وذلك لأنه من ذات الله، وذات الله وصفاته ليست مخلوقة، بل الأصل أنها قديمة، ونقول: إنا إذا نظرنا في المخلوقات، فقد صرح الله تعالى بخلقها، ذكروا أن الله تعالى أورد ذكر القرآن في نحو خمسة وخمسين موضعًا، ولم يقل: إنه مخلوق، وأورد ذكر الإنسان في سبعة عشر موضعًا، وكلها ذكر أنه مخلوق، ومنها قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ [الرحمن: ١ - ٣] فرّق بين الإنسان وبين القرآن، فعُرف بذلك أن صفة الكلام من الصفات الفعلية؛ لأنه صفة متعلقة بذاته، بمشيئته وقدرته، إذا شاء تكلم، وإذا شاء أسمع كلامه لمن يشاء.

قوله - رحمه الله -: **(وَالْخَلْقِ)**، أي: وكذلك أيضًا الخلق صفة فعلية، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ١ - ٢]، وقوله عز

---

(١) قصيدة ابن القيم مع شرح ابن عيسى (١/ ٢٧٠)

(٢) انظر شرح سماحة شيخنا عبدالله بن جبرين للامية ص(٣٩).

وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦]، وقوله جل وعلا: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم﴾ يعني: ابتداء خلقهم وقوله عز وجل: ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠]، ونحو ذلك وكذلك المخلوقات كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقوله عز وجل: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩]، ونحو ذلك من المخلوقات، والخلق هو: الإبداع، خلقه يعني: أبدعه وأوجده، بعد أن كانت السموات معدومة، وبعد أن كان الإنسان معدومًا، وهكذا جميع الموجودات.

قوله - رحمه الله -: **(وَالرِّزْقِ)**، وكذلك الرزق من الصفات الفعلية، قال تعالى: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢١٢]، وقال عز وجل: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ [الذاريات: ٥٧ - ٥٨]، وفي آيات كثيرة يخبر بأنه خير الرازقين، وأنه الذي يرزق العباد، ويسهل لهم الرزق، بل كل الموجودات، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، وقال عز وجل: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

قوله - رحمه الله -: **(وَالرَّحْمَةِ)**، وكذلك الرحمة صفة أيضًا فعلية، يرحم الله من يشاء، وقد أخبر تعالى بهذه الصفة بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]، وصف لله تعالى بإثبات هذه الرحمة كما يشاء، وقد أنكرها المعتزلة بل والأشاعرة، وقالوا: إن الرحمة: إرادة الإنعام، هكذا إرادة، وإذا قيل لهم لماذا لا تثبتون الرحمة؟ قالوا: لأن في الإنسان رحمة، فقوله ﷺ:

(الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ)(١)، فالرحمة التي في الإنسان مخلوقة، فلا يمكن إثبات الرحمة لله تعالى، حتى لا يكون هناك تشبيه.

نقول: أنتم تقولون: إن الرحمة إرادة الإنعام، فهل هذه الرحمة والإرادة كإرادتنا؟ فسيقولون: لا، بل هي إرادة تليق بالله.

نقول لهم: فقولوا رحمة تليق بالله.

قوله- رحمه الله -: **(وَالاسْتِوَاءِ عَلَى الْعَرْشِ)**، فهو صفة فعلية أيضًا، وقد ورد ذكره في سبعة مواضع من القرآن: في سورة (الأعراف)، وفي سورة (الرعد)، وفي سورة (يونس)، وفي سورة (طه)، وفي سورة (الفرقان)، وفي سورة (السجدة)، وفي سورة (الحديد)، ذكر الاستواء على العرش.

قوله - رحمه الله -: **(وَالنُّزُولِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، كَمَا يَشَاءُ)**، النزول أيضًا صفة فعلية، ينزل كما يشاء، ويجيء كما يشاء، قال الله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وقال عز وجل: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، وقال جل وعلا: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، وأخبر النبي ﷺ بأن الله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا كل ليلة، على ما يليق به وكما يشاء، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول ﷺ قال: **(ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثُلُثُ الليل الآخر يقول: من يدعوني فاستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟)**(٢)، وهذه

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤)، وأحمد (٢/١٦٠)، من حديث عبدالله ابن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) تقدم تخريجه وهو في الصحيحين.

كلها صفات فعلية.

ومن الصفات الفعلية صفة المحبة، أي: أنه تعالى يحب من يشاء، ويبغض من يشاء، ويكره من يشاء، ويغضب ويرضى، هذه أيضًا صفات فعلية، نثبتها لله تعالى كما يشاء.

وَأَنَّ جَمِيعَهَا تُثْبَتُ للهِ مِنْ غَيْرِ تَمْثِيلٍ وَلاَ تَعْطِيلٍ، وَأَنَّهَا كُلَّهَا قَائِمَةٌ بِذَاتِهِ، وَهُوَ مَوْصُوفٌ بِهَا، وَأَنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَزَلْ وَلاَ يَزَالُ يَقُولُ وَيَفْعَلُ، وَأَنَّهُ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ، يَتَكَلَّمُ بِمَا شاء إِذَا شَاءَ، كَيْفَ شَاءَ، لَمْ يَزَلْ بِالْكَلامِ مَوْصُوفًا، وَبِالرَّحْمَةِ وَالإِحْسَانِ مَعْرُوفًا.

الشرح:

قوله- رحمه الله -: **(وَأَنَّ جَمِيعَهَا تُثْبَتُ للهِ مِنْ غَيْرِ تَمْثِيلٍ وَلاَ تَعْطِيلٍ)**، أي: أننا نثبتها لله تعالى من غير تشبيه ولا تمثيل، فلا نشبهها بصفات المخلوقين، ولا نمثلها بالمحدثات، ومن غير تكييف، فلا نكيفها، لا نقول: كيفية النزول كذا، وكيفية الاستواء كذا، ولا تعطيل أي: لا نجحدها، فنعطل الله تعالى من صفات الكمال، كذلك من غير تحريف ولا تأويل؛ لأن الله ذم اليهود والنصارى بقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾[النساء: ٤٦]، وقوله عز وجل: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ٤١]، والتحريف هو: التغيير، تغيير الكلام عما هو عليه، والتأويل: صرف اللفظ عن ظاهره.

قوله- رحمه الله -: **(وَأَنَّهَا كُلَّهَا قَائِمَةٌ بِذَاتِهِ وَهُوَ مَوْصُوفٌ بِهَا)**، نقول: إن هذه الصفات الفعلية والذاتية كلها قائمة بذات الله، يعني يتصف بها، فهي صفات تقوم بذاته، ولا نقول: إنها تنفصل عنه، بل إنها قائمة بذاته، فيُسمع كلامه، ويُقال: كلامه صفة ذاتية قائمة بذاته، وكذلك أيضًا تنزل رحمته، ويُرى آثار محبته، وهذا معنى كونها قائمة بذاته، وأنه موصوف بها، فيوصف بأنه ينزل، ويستوي، ويرحم، ويرزق، ويخلق ما يشاء، ويحب ويكره، ونحو ذلك.

قوله- رحمه الله -: **(وَأَنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَزَلْ وَلاَ يَزَالُ يَقُولُ وَيَفْعَلُ)**، لا يزال يخلق في كل وقت، ما يشاء، بخلاف من يقول: إنه خلق ثم توقف عن الخلق، بل إنه يخلق ما يشاء، والخلق مستمر، نشاهد أنه يخلق في الأفلاك، ويخلق السحب، ويخلق الرياح ويسيرها، ويخلق النباتات، ويخلق الدواجن والبهائم، والأطفال ونحو ذلك، وكذلك أيضًا يفعل ويقول كما يشاء، دون أن يتصرف أحد في كونه، بل هو الذي يقول ويفعل.

قوله- رحمه الله -: **(وَأَنَّهُ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)**، كما أخبر تعالى عن نفسه في قوله: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧].

قوله- رحمه الله -: **(يَتَكَلَّمُ بِمَا إِذَا شَاءَ، كَيْفَ شَاءَ)**، فإن من صفته أنه يتكلم بما شاء، متى شاء، وكيف شاء، إذا شاء تكلم، وإذا شاء لم يتكلم، وأنه **(لَمْ يَزَلْ بِالْكَلامِ مَوْصُوفًا)**، أي: لم يزل موصوفًا بأنه يتكلم.

قوله - رحمه الله -: **(وَبِالرَّحْمَةِ وَالإِحْسَانِ مَعْرُوفًا)**، أي: موصوف بالرحمة، ومعروف بالرحمة والإحسان إلى خلقه.

فتكون هذه الصفات ثابتة لذات الله.

وَدَخَلَ فِي ذَلِكَ الإِيمَانُ بِأَنَّ القُرْآنَ كَلامُ اللهِ، مُنَزَّلٌ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، مِنْهُ بَدَأَ، وَإِلَيْهِ يَعُودُ، وَأَنَّهُ الْمُتَكَلِّمُ بِهِ حَقًّا، وَأَنَّ كَلامَهُ لاَ يَنْفَدُ، وَلاَ يَبِيدُ.

الشرح:

قوله- رحمه الله-: **(وَدَخَلَ فِي ذَلِكَ)**، أي: دخل في توحيد الأسماء والصفات.

قوله - رحمه الله -: **(القُرْآنَ كَلامُ اللهِ مُنَزَّلٌ غَيْرُ مَخْلُوقٍ)**، مسألة القرآن من المسائل التي عظم فيها الخلاف، وخالف فيها المبتدعة؛ وذلك لأن المعتزلة وكل من كان على طريقتهم، تخيلوا أن الله تعالى ذات مجرد عن الصفات الفعلية والصفات الذاتية، وتخيلوا أيضًا أن الكلام لا يصدر إلا من اللهوات، ومن اللسان والشفتين والحنجرة، حتى يكون كلامًا مسموعًا، واعتقدوا ذلك، فأنكروا أن يكون الله تعالى متكلماً أو يتكلم بشيء، وادعوا أن هذا القرآن مخلوق، خلقه الله، كما خلق الإنسان، وكما خلق السموات والأرض وسائر الحيوانات، ثم يُقال لهم: بأي شيء خلقه؟ أليس الله تعالى يتكلم بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فكلمة (كن) كلام، فإذا أقررتم بأنه يتكلم بكلمة (كن)، فإنه تكلم بهذا القرآن، وتكلم بسائر الكتب، وغير ذلك من كلامه، فمن كلامه هذا القرآن أنه كلام الله حقيقة، تكلم به كما يشاء، لا كلام غيره، هذا قول أهل السنة.

ثم نقول: لا يلزم من إثبات أن الله متكلم أن يكون كلامه ككلام المخلوقين، بل يتكلم كما يشاء، ولا نقول: إنه يكون من اللهوات والحنجرة

والهواء ونحو ذلك، بل كما يشاء، ونحن الآن نشاهد سماع الكلام من هذه المسجلات وهذه الإذاعات ونحوها، ونعلم أنه ليس لهذا المسجل ونحوه لسان، ولا شفتان، ولا لهوات، بل إنه آلة تسجل ما سجل فيها، فإذا كان الإنسان اخترع هذه الآلة، وكذلك الإذاعة والتلفاز والراديو ونحو ذلك، دل على أن الله تعالى قادر على أن يتكلم كما يشاء، فمن كلامه القرآن، فيُرد بهذا على الذين أنكروا أن القرآن كلام الله، وقالوا: إنه مخلوق، ومنهم من يقول: عن القرآن كلام الله، ويتوقف عن قوله: (غير مخلوق)، وكأن هؤلاء يدعون أنه مخلوق، كأنهم يقولون: كلام الله مخلوق، فإذا قيل قولوا: غير مخلوق، فإنهم يمتنعون، ومنهم من يقول: إن القرآن كلام الله، ولكن ألفاظنا بالقرآن مخلوقة، وقد رُوي ذلك عن البخاري أنه قال: لفظي بالقرآن مخلوق، يريد بذلك ما أتلفظ به، أي: ما أتكلم به، وما تتحرك به شفتاي، فحركات الشفتين واللسان مخلوقة لله تعالى، ولكن منع من ذلك الإمام أحمد وأكثر الأئمة، ووقعت بين البخاري وبين الذهلي مخالفة في هذه المسألة؛ ولذلك أنكر الذهلي على البخاري، وشدد في الإنكار، عليه مع أنه من تلاميذه، فالبخاري روى عن الذهلي.

ثم صنف البخاري رسالته المطبوعة (خلق أفعال العباد)، وهذا لا خلاف فيه، فإن أفعال العباد وحركات العباد، كلها مخلوقة لله تعالى، ولكن قولنا: إن ألفاظنا بالقرآن مخلوقة، يُخاف أن هذه الجملة يدخل فيها الملفوظ، الذي هو القرآن؛ فلذلك يتوقف فيها.

فالحاصل: أننا نقر بأن القرآن كلام الله، حروفه ومعانيه، وأن الله تكلم به حقًا، ليس كلام الله الحروف دون المعاني، ولا المعاني دون الحروف، فالمعتزلة يقولون: إنه ليس كلام الله لا الحروف ولا المعاني.

وأما الأشاعرة فيقولون: إن كلام الله المعاني ليس الحروف، وكأنهم يقولون: عن كلام الله هو في الحقيقة المعاني، وأن الحروف عبارة عبر بها جبريل عليه السلام، أو عبر بها النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وإنما المعنى هو من الله، وأكثر ما يستدلون ببيت الأخطل:

إِنَّ الكَلاَمَ لَفِي الْفُؤَادِ وَإِنَّمَا جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الْفُؤَادِ دَلِيلاً

وقد ذكرنا أن شيخ الإسلام رد عليه في كتاب (الإيمان)، ونقل كلامه ابن أبي العز في شرح الطحاوية، وابن أبي العز حنفي المذهب، ولكنه تتلمذ على ابن كثير، وابن كثير شافعي المذهب، ولكنه تتلمذ على ابن تيمية وتأثر به، وصارت عقيدته كعقيدة أهل السنة؛ ولهذا ينكر على الذين يقولون: إن القرآن مخلوق، أو إن القرآن عبارة أو حكاية، ولما تأثر به ابن أبي العز، أرشده إلى كتب ابن القيم، وكتب ابن تيمية، فنقل منها كثيرًا، ومن جملة ما نقل كتاب ابن تيمية في كتاب (الإيمان)، ورده على الأشاعرة الذين يقولون: عن القرآن عبارة وحكاية لا أنه عين الكلام، ولذلك يقول الشيخ مُلا عمران بن رضوان رحمه الله ساكن لنجة[1] في عقيدته:

---

(١) الشيخ عمران بن علي آل رضوان، المعروف باسم ملا عمران ـ رحمه الله ـ من علماء أهل السنة والجماعة في القرن الثالث عشر للهجرة في منطقة لنجة ببلاد فارس، كان رحمه الله شاعراً لبقاً، وكان سلفياً، نصر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وله قصائد في التوحيد والعقيدة، وكان على مذهب الإمام الشافعي في الفقه، وأسند إليه القضاء في لنجة، وكذلك الإفتاء. توفي عام ١٢٨٠ هـ بعدما أوجد حركة علمية حسنة في لنجة، وتخرج به عدد من العلماء. انظر: «تاريخ لنجة» (١/ ٤٠).

بَلْ إِنَّهُ عَيْنُ الكَلامِ أتى بهِ جبريلُ ينسخ حكمَ كُلِّ كِتَابِ

فالحاصل: أننا نؤمن بأنه كتاب الله، وأنه منزل غير مخلوق، فقد ذكر الله أنه منزل، قال تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وقال عز وجل: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ٢]، وقال جل وعلا: ﴿مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ [الأنعام: ١١٤]، والآيات كثيرة فيه.

كذلك (غَيْرُ مَخْلُوقٍ)، ردًا على الجهمية ونحوهم، الذين يقولون: إنه مخلوق، وقد جادلهم الإمام أحمد- رحمه الله- وقوي عليهم، وأبطل شبهاتهم، وكان أكثر ما يستدلون به قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾[الزمر: ٦٢]، يقولون: القرآن شيء، والله خالق كل شيء، وقوله عز وجل: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، ويقولون: إنه شيء خلقه، وقدره تقديرًا، فيجيبهم الإمام أحمد -رحمه الله- بأن قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾، لم تدخل فيها صفاته، ولم يدخل في ذلك كلامه، وإذا كان كذلك عُرف بأنه قد دخله التخصيص من عموم كل شيء، ومما يستدلون به أن هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾، قد لا تكون عامة، ودليل ذلك قوله تعالى في الريح: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ﴾[الأحقاف: ٢٥]، ومساكنهم شيء، ومع ذلك ما دمرتها، فدل على أن كل شيء يكون بحسبه، وقوله تعالى في قصة ملكة سبأ: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾[النمل: ٢٣]، ومع ذلك فإنها ما أوتيت مثل ما أوتي سليمان عليه السلام، فما أوتيت الريح التي سخرها الله لسليمان عليه السلام، ولا أوتيت أيضًا الشياطين التي سخرت لسليمان عليه السلام، فعلى هذا قوله تعالى: ﴿خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾، لا يلزم منه العموم.

ثم يقول -رَحِمَهُ اللهُ-: **(مِنْهُ بَدَأَ، وَإِلَيْهِ يَعُودُ)**، أي: هذا القرآن بدأ منه، هو الذي خلقه كما شاء، **(وَإِلَيْهِ يَعُودُ)**، أي: مرجعه إليه، سئل شيخ الإسلام عن ذلك، فأخبر أنه قد رُوي أنه في آخر الزمان يُرفع هذا القرآن، ويُنسخ من المصاحف، وكذلك من صدور الرجال، ولا يبقى منه شيء، وذلك عندما يتركون العمل به، ويكون ذلك قرب قيام الساعة، فعندما يبقى القرآن لا يُعمل به يرفعه الله، هذا معنى **(وَإِلَيْهِ يَعُودُ)**.

ثم يقول: **(وَأَنَّهُ الْمُتَكَلِّمُ بِهِ حَقًّا)**، الله الذي تكلم بهذا القرآن كلامًا حقيقياً، سمعه منه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد دخل فيما كتب في اللوح المحفوظ، تكلم به حقًا، وسمعه منه الملك، وأوحاه إلى نبينا ﷺ، وكذلك سائر الكلام الذي أنزله على الأنبياء السابقين وأصبح شريعة.

ثم يقول: **(وَأَنَّ كَلامَهُ لاَ يَنْفَدُ، وَلاَ يَبِيدُ)**، كلام الله تعالى ليس له بداية ولا نهاية، وقد أوضح ذلك أيضًا ابن القيم -رَحِمَهُ اللهُ- في أول كتابه (الوابل الصيب)، وتكلم على هذه الآية وهي قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧]، فيقول: لو أن شجر الدنيا من أولها إلى آخرها، وأن هذه البحار من أول الدنيا إلى آخرها مداد يعني أنها حبر، ثم كتب بتلك الأقلام كلام الله، وكتب بذلك الحبر الذي هو البحار، تكسرت الأقلام، ونفدت مياه البحار، قبل أن ينفد كلام الله، وكيف ينفد وليس له أول ولا آخر! هذا معنى كونه **(لاَ يَنْفَدُ، وَلاَ يَبِيدُ)**، باد يعني: اضمحل، ونفد يعني: لم يبق منه شيء، بل كلامه لا يحيط به أحد، وقد ثبت أنه ﷺ كان من جملة الذكر الذي علمه

لجويرية إحدى أمهات المؤمنين - رضي الله عنهن -: (سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضَا نَفْسِهِ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ، وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ)[1]، يعني: حمدًا لا ينفد، كما أن كلماته لا تنفد بهذا المداد، فكذلك حمدنا لا ينفد.

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢٦).

وَدَخَلَ فِي ذَلِكَ الإِيمَانُ بِأَنَّهُ قَرِيبٌ مُجِيبٌ، وَأَنَّهُ مَعَ ذَلِكَ عَلِيٌّ أَعْلَى، وَأَنَّهُ لاَ مُنَافَاةَ بَيْنَ كَمَالِ عُلُوِّهِ وَكَمَالِ قُرْبِهِ؛ لأَنَّهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي جَمِيعِ نُعُوتِهِ وَصِفَاتِهِ.

وَلاَ يَتِمُّ تَوْحِيدُ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ بِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، مِنَ الأَسْمَاءِ، وَالصِّفَاتِ، وَالأَفْعَالِ، وَأَحْكَامِهَا، عَلَى وَجْهٍ يَلِيقُ بِعَظَمَةِ الْبَارِي، وَيَعْلَمَ أَنَّهُ كَمَا أَنَّهُ لاَ يُمَاثِلُهُ أَحَدٌ فِي ذَاتِهِ، فَلاَ يُمَاثِلُهُ أَحَدٌ فِي صِفَاتِهِ.

وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ فِي بَعْضِ الْعَقْلِيَّاتِ مَا يُوجِبُ تَأْوِيلَ بَعْضِ الصِّفَاتِ عَلَى غَيْرِ مَعْنَاهَا الْمَعْرُوفِ، فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِينًا.

الشرح:

يعتقد أهل السنة أن الله تعالى موصوف بالعلو – كما تقدم – علو القدر، وعلو القهر، وعلو الذات، ومع ذلك فإنه قريب من عباده، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وفسر ابن القيم – رَحِمَهُ ٱللَّهُ – في بعض كتبه قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [الأعراف: ٥٦]، أن معناه أن الله برحمته قريب؛ وذلك لأنه تكلم على هذه الآية في كتابه (بدائع الفوائد)[1]، لماذا لم يقل: رحمة الله قريبة؟ وذكر في ذلك أقوالاً، غالبها للمتكلمين والنحويين، واختار القول بأن المراد أن الله قريب برحمته.

---

(١) ٣/٥٢٩ وما بعدها.

فالحاصل أننا نصف الله تعالى بالقرب، ومعنى قربه أنه مطلع على عباده، يراهم لا يخفى عليه منهم خافية، يعلم أحوالهم، فهو يعلم جميع أحوال المخلوقات، حتى الذرات والخردلات ونحوها، فهو يعلم بحال العباد، لا يخفى عليه منهم خافية، مطلع على قلوبهم، وعلى أعمالهم، فهو قريب منهم، وهذه هي المعية العامة، ذكر الله تعالى المعية، وقسمها العلماء إلى قسمين: معية عامة، ومعية خاصة.

المعية العامة كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وفي قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وقوله جل وعلا: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ﴾ [النساء: ١٠٨]، وقوله عز شأنه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة: ٧]، قال الإمام أحمد: افتتح الآية بالعلم ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾، واختتمها بالعلم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[1]»، فدل على أن القرب بعلمه، والقرب باطلاعه، ومعرفته، ورؤيته، ومراقبته، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب: ٥٢]، يعني: مراقبًا مطلعًا على أحوال عباده، قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

وفائدة ذلك: أن العبد إذا آمن بذلك تورع، وحفظ نفسه، ولم يقدم على ذنب ولو كان خاليًا؛ لأنه يستحضر أنه بمرأى وبمسمع من الله تعالى، فلا يقدم

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٣٢٢.

في الخلوة على ما يكرهه الله ؛ ولهذا كان من وصايا العلماء الناصحين قولهم: «استحي من الله أن يراك حيث نهاك ، أو يفقدك حيث أمرك» ، فالله تعالى قريب مجيب ، وهو مع ذلك علي أعلى ، فالله تعالى موصوف بأنه علي أعلى.

قوله- رحمه الله - : **(وَأَنَّهُ لاَ مُنَافَاةَ بَيْنَ كَمَالِ عُلُوِّهِ وكَمَالِ قُرْبِهِ)** ، ما ذُكر في القرآن من علوه على عباده ، لا ينافي ما ذكر من قربه ومعيته ، التي هي المعية العامة والخاصة ، لا ينافي ذلك ، ويراد بعلوه : علوه بذاته ، ويُراد بدنوه : قربه من عباده ، واطلاعه على أحواله ، وهذه هي المعية العامة ، وأما المعية الخاصة فإنها المذكورة في بعض الآيات التي يخص الله بها بعض العباد بأنه معهم ، كقوله تعالى : ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة : ١٩٤]، وقوله عز وجل : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل : ١٢٨]، وقوله جل وعلا : ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة : ٤٠]، وقوله جل شأنه : ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه : ٤٦] ؛ هذه معية خاصة ، ومقتضاها النصر والتمكين والحفظ والكلاءة.

والمعية العامة مقتضاها : العلم ، والقرب ، والاطلاع والهيمنة ، وكل واحدة منهما لها أثر ، فأثر المعية العامة كون الإنسان يخاف من الله ، فإن الله تعالى معنا ، وأنه يرانا ويطلع علينا فلا نقدم على معصية.

أما آثار المعية الخاصة فهي الثقة بنصر الله ، وذلك لأنه لو أيقن أن الله معنا بنصره وبتأييده وبتقويته ، قوي قلبه.

قوله - رحمه الله - : **(لأَنَّهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي جَمِيعِ نُعُوتِهِ وَصِفَاتِهِ)** ؛ لقوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١]، فقوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ رد على المشبهة ، وقوله عز وجل : ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾

رد على المعطلة، فإن هناك من يشبه صفات الله تعالى بصفات خلقه، هؤلاء مشبهة، فرد عليهم بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، وقوله عز وجل: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، وقوله جل وعلا: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]، وقوله جل شأنه: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، وهناك من ينكر صفاته كلها، فرد عليهم بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ وأشباه ذلك، فليس لله تعالى شبيه في جميع نعوته وصفاته، وذلك لأن المسلمين يقتصرون على ما في القرآن والسنة من أسماء الله تعالى وصفاته.

يقول- رحمه الله -: **(وَلاَ يَتِمُّ تَوْحِيدُ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ بِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ)**، علمنا أن من أقسام التوحيد: توحيد الأسماء والصفات، وهو التوحيد في المعرفة والإثبات، فلا يتم هذا التوحيد حتى يؤمن بكل ما جاء في القرآن والأحاديث الصحيحة، من أسماء الله، وصفاته، وأفعاله، وأحكامه، ومعنى كونهم يؤمنون بما وصف الله به نفسه في كتابه، وبما وصفه به نبيه محمد ﷺ في سنته، أي: كل ما جاء في الكتاب والسنة فإننا نؤمن به ولا نكيفه، نؤمن به كما شاء الله، ونؤمن به كما أنزل بكتاب الله تعالى، وبأسمائه، وصفاته، وبسنة النبي ﷺ، وما فيها من أسماء الله وصفاته.

قوله - رحمه الله-: **(مِنَ الأَسْمَاءِ)**، وقد ذكر العلماء أن الله تعالى له الأسماء الحسنى، وأن كل اسم من أسماء الله فإن له ثلاثة دلالات، مثل الرحمن يدل على ذات الله تعالى دلالة مطابقة، ويدل على الصفة المشتق منها دلالة تضمن؛ لأن الرحمن مشتق من الرحمة، ويدل على بقية صفات الكمال دلالة التزام، هذا معنى الأسماء.

قوله- رحمه الله -: **(وَالصِّفَاتِ)**، وكذلك الصفات التي ذكرها الله، وصف الله نفسه بالمجيء والإتيان، في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]، وقوله عز وجل: ﴿أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، ووصف نفسه بأنه المحي المميت، ووصف نفسه بالنصر، في قوله جل وعلا: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ [الروم: ٥].

قوله- رحمه الله -: **(وَالأَفْعَالِ)**، وكذلك أيضًا بالأفعال في قوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]، وفي مثل قوله عز وجل: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

قوله- رحمه الله -: **(وَأَحْكَامِهَا)**، وكذلك أحكام الأسماء وأحكام الصفات، فيُعمل بها **(عَلَى وَجْهٍ يَلِيقُ بِعَظَمَةِ الْبَارِي)**، ونحكم بأن أسماء الله كلها حسنى، كما أخبر بذلك، أي في غاية الحُسن، وقد ذكر الله تعالى ذلك في عدة سور، في سورة (الأعراف) قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وفي سورة (الإسراء) قوله عز وجل: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]، وفي سورة (طه) قول الله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٦ - ٨]، وفي سورة (الحشر) قول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحشر: ٢٤].

فأسماء الله تعالى وصفاته لها أحكام، ومن ذلك أنه رحيم بعباده، وأنه رؤوف بهم، وأنه سميع بصير، وأنه كذلك بكل شيء عليم، على كل شيء قدير، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، كما في قول الله تعالى: ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ

﴿مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، كذلك في قوله عز وجل: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١]، وأشباه ذلك.

نثبتها على وجه يليق بعظمة الباري، فنقول: استواء يليق به، ونزول يليق به، ووجه يليق به، ورحمة تليق به، ومحبة تليق به، وأشباه ذلك.

قوله -رحمه الله-: **(وَيَعْلَمَ أَنَّهُ كَمَا أَنَّهُ لاَ يُمَاثِلُهُ أَحَدٌ فِي ذَاتِهِ، فَلاَ يُمَاثِلُهُ أَحَدٌ فِي صِفَاتِهِ)**، هذا من عقيدة أهل السنة، وجعله شيخ الإسلام في كتابه (التدمرية) أصلاً من الأصول التي ترجع إليها القواعد العمومية، فيقول: «إن القول في الذات كالقول في الصفات»، فإذا سألنا سائل من المعتزلة، وقال: كيف يوصف الله تعالى بالسمع، وكيف تثبتون لله سمعًا؟ نقول لهم: أنتم تثبتون لله الذات، فما كيفية الذات؟ يقولون: على ما يليق به، فنقول: وكذلك الصفات على ما يليق بالله، فالقول في الصفات كالقول في الذات.

كذلك أيضًا يُقال للأشاعرة: أنتم تقرون بسبع صفات، تقرون بالعلم، والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام، والحياة، فهذه الصفات أليس يوصف بها الإنسان؟ فيقولون: نثبتها على ما يليق بالله، فنقول لهم: كذلك نحن نثبت بقية الصفات على ما يليق بالله، فنثبت الرحمة كما يليق بالله، والمحبة، والغضب، والرضا، والصفات الفعلية، مثل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ [الزخرف: ٥٥]، وقوله عز وجل: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ [الأعراف: ١٣٦]، وقوله جل وعلا: ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣]، وقوله عز شأنه: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا﴾ [النمل: ٥٠]، فهذه الصفات نثبتها.

إذا قلنا: نحن نثبت الغضب، قالوا: الغضب غليان دم القلب؛ لطلب الانتقام، قلنا: أنتم تثبتون الإرادة، والإرادة: ميل النفس إلى المراد وإيثاره، فإذا قالوا: هذه إرادة المخلوق، ونحن نثبت إرادة تليق بالله، قلنا: هذا غضب المخلوق، ونحن نثبت غضبًا يليق بالله.

فنقول: أسماء الله تليق به، لا يماثله أحد في ذاته، وكذلك صفاته تليق به، لا يماثله أحد في صفاته، وكذلك أفعاله تليق به، نؤمن بها ولا نكيفها، لا نقول: كيف علمه، ولا كيف سمعه، وبصره، وقدرته، ومحبته، ورحمته، وغضبه، ولو قالوا لنا ذلك، قلنا لهم: كيف هو؟ كيف ذاته؟ فإذا قالوا: لا يعلم كنه ذاته إلا هو، قلنا: وكذلك هذه الصفات، لا نعلم كنهها إلا أننا نعلم معانيها، ونعلم أن الرحمن دليل على إثبات الرحمة، وأن الودود دليل على إثبات صفة المودة، وأشباه ذلك، فالله تعالى لا يماثله أحد في صفاته، ولا يُسأل عن كيفية الصفات، كذلك أيضًا لا يُسأل عن الأفعال، فلا يُقال في الصفات كيف ينزل؟ أو كيف استوى؟ لا تسأل بكيف.

وكذلك أيضًا لماذا خلق السباع؟ الله أعلم، لماذا خلق الحيات والعقارب ونحوها، الله أعلم، كيف خلق الذرة والنمل ونحو ذلك. نقول: لا نسأل عن هذه الأشياء، فلا نقول في صفاته (كيف)، ولا في أفعاله (لم).

ثم يقول -رحمه الله-: **(وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ فِي بَعْضِ الْعَقْلِيَّاتِ مَا يُوجِبُ تَأْوِيلَ بَعْضِ الصِّفَاتِ عَلَى غَيْرِ مَعْنَاهَا الْمَعْرُوفِ، فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِينًا)**، يرد بذلك على العقلانيين، الذين يقدمون العقل على النقل، وهم المعتزلة ومن تبعهم وقرب منهم، كالأشاعرة والماتريدية، لأنهم يقولون: ما عرفنا صدق الرسل

إلا بعقولنا، فإذا جاء الرسل بصفة لا تدركها عقولنا ولا تتمكن من معرفة كيفيتها، رددناها، ولم نصدق بها؛ لأن العقل يكذب بها.

فنقول: إن هذا خطأ، والواجب تقديم النقل ولو خالف عقولهم، ونقول أيضًا: إن عقولهم مضطربة اضطرابًا كثيرًا، فتجد ثلاثة أو أكثر، عقلاء أذكياء أهل فطانة، وأهل معرفة، وتجدهم مختلفين، هذا يقر بصفة السمع والبصر والحياة، ويقول: العقل أثبتها، وهذا ينكرها ويقول: العقل نفاها، كيف اختلفت هذه العقول، ويُشاهد أيضًا أن أحدهم ينكر صفة من الصفات، ويبقى على إنكارها عشرين أو أربعين سنة، ثم بعد ذلك يتراجع ويؤمن بها ويقول: إن العقل وثقها، عقل واحد أربعين سنة وهو ينكرها، ثم بعد ذلك أقر بها وأثبتها، أليس ذلك دليل على أن هذه العقليات ليست هي الميزان في القبول، فليس في العقليات ما يوجب تأويل بعض الصفات على غير معناها المعروف، ولما اعتقدوا أن هذه الصفات منكرة عقلاً، سلطوا عليها التأويلات، التي تدل على أنهم منكرون لها، وليس في العقليات ما يوجب تأويل بعض الصفات على غير معناها المعروف، ومن ظن ذلك فقد ضل ضلالاً مبينًا، بل إن العقول الصحيحة تعترف بهذه الصفات، ولا يجوز تأويلها؛ لأن التأويل باب شر.

وأول من استعمل التأويل وأكثر منه الأشاعرة، استعملوه في تأويل الصفات، يعني: صرفها عن ظاهرها، وهي الصفات التي لا يوافقون عليها، ولما فتحوا هذا الباب دخل معهم المعتزلة، وقالوا: أنتم تأولتم صفة المحبة، والرضى، والغضب، والوجه، واليد، فنحن ندخل كما دخلتم ونتأول صفة الحياة، والسمع، والبصر، والكلام، والقدرة، والإرادة، أنتم الذين فتحتم لنا الباب،

فإذا وسعكم أن تؤولوا صفة الإتيان - مثلاً - أو صفة الرحمة، والرضى، والغضب، والكراهية، ونحو ذلك، جاز لنا، تأويل القدرة، والسمع، والبصر.

والجهمية تأولوا جميع الصفات، فدخل بعد ذلك الفلاسفة، وقالوا: نحن ننكر البعث الحقيقي للأجساد، وكذلك عذاب القبر، فندخل من مدخلكم، فنتأول الآيات التي فيها البعث والنشور، والتي فيها الجزاء على الأعمال.

فأول من استعمل التأويل وتوسع فيه الأشاعرة، وتبعهم في ذلك الجهمية، وإن كانوا متقدمين عليهم، وتبع الجميع الفلاسفة، في تأويل الأخبار التي عن الدار الآخرة.

قوله - رحمه الله -: **(فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِينًا)**، أي: ضل ضلالاً بعيدًا، فالعقليات نقبلها، ونقر بها بعقولنا، ولا نتأول لأجلها الصفات، ولا نحرف الكلم عن مواضعه، بل نقر بذلك كله على ما يليق بالله تعالى.

وَلاَ يَتِمُّ تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ حَتَّى يَعْتَقِدَ الْعَبْدُ أَنَّ أَفْعَالَ الْعِبَادِ مَخْلُوقَةٌ للهِ، وَأَنَّ مَشِيئَتَهُمْ تَابِعَةٌ لِمَشِيئَةِ اللهِ، وَأَنَّ لَهُمْ أَفْعَالاً وَإِرَادَةً تَقَعُ بِهَا أَفْعَالُهُمْ، وَهِيَ مُتَعَلَّقُ الأَمْرِ وَالنَّهْيِ.

وَأَنَّهُ لاَ يَتَنَافَى الأَمْرَانِ: إِثْبَاتُ مَشِيئَةِ اللهِ الْعَامَّةِ الشَّامِلَةِ لِلذَّوَاتِ وَالأَفْعَالِ وَالصِّفَاتِ، وَإِثْبَاتُ قُدْرَةِ الْعَبْدِ عَلَى أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ.

وَلاَ يَتِمُّ تَوْحِيدُ الْعِبَادَةِ حَتَّى يُخْلِصَ الْعَبْدُ للهِ - تَعَالَى - فِي إِرَادَتِهِ وَأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَحَتَّى يَدَعَ الشِّرْكَ الأَكْبَرَ، الْمُنَافِي لِلتَّوْحِيدِ كُلَّ الْمُنَافَاةِ، وَهُوَ: أَنْ يَصْرِفَ نَوْعًا مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ لِغَيْرِ اللهِ تَعَالَى.

وَكَمَالُ ذَلِكَ أَنْ يَدَعَ الشِّرْكَ الأَصْغَرَ، وَهُوَ: كُلُّ وَسِيلَةٍ قَرِيبَةٍ يُتَوسَّلُ بِهَا إِلَى الشِّرْكِ الأَكْبَرِ، كَالْحَلْفِ بِغَيْرِ اللهِ، وَيَسِيرِ الرِّيَاءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

الشرح:

قد عُرِفَ أن توحيد الربوبية يقر به المشركون إجمالاً، وأهل الإسلام يقرون به تفصيلاً، ويلزمونهم الإقرار به، وهو: إسناد كل الأفعال إلى الله تعالى، فجميع الحركات التي تحصل في هذه الدنيا، كلها بإرادة الله، وكلها مخلوقة لله تعالى، (**وَلاَ يَتِمُّ تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ حَتَّى يَعْتَقِدَ الْعَبْدُ أَنَّ أَفْعَالَ الْعِبَادِ مَخْلُوقَةٌ للهِ، وَأَنَّ مَشِيئَتَهُمْ تَابِعَةٌ لِمَشِيئَةِ اللهِ، وَأَنَّ لَهُمْ أَفْعَالاً وَإِرَادَةً تَقَعُ بِهَا أَفْعَالُهُمْ، وَهِيَ مُتَعَلَّقُ الأَمْرِ وَالنَّهْيِ**)، فيعتقد العباد أن كل حركة في الوجود، فإنها بإرادة الله وبخلقه، وهذا معنى قولهم: «لا يكون في الوجود إلا ما يريد»، فأفعال العباد خلق الله تعالى، ولا يكون ذلك حجة لهم في أنهم غير قادرين على العمل،

كحجة الجبرية الذين يقولون: إنهم مجبورون على أعمالهم، وعلى كفرهم، وعلى شركهم ونحو ذلك، فإن الله تعالى قد أعطاهم قدرة يزاولون بها الأعمال، تقوم بها الحجة عليهم، ولو كانت تلك القدرة مسبوقة بقدرة الله تعالى وبإرادته؛ ولهذا يذكر الله تعالى لهم مشيئة مسبوقة بمشيئة الله تعالى، في مثل قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [المدثر: ٥٥-٥٦]، فأثبت أن لهم مشيئة يتذكرون بها، ثم ذكر أن مشيئتهم لا تحصل إلا بعد مشيئة الله، وقال عز وجل: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٢٩- ٣٠]، فأثبت لهم مشيئة، فمن شاء اتخذ، وذكر أنها لا تحصل مشيئتهم إلا بعد مشيئة الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، وكذلك قوله جل وعلا: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٨]، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

وقد ذهب الناس مذاهب في هذه المشيئة ونحوها:

فعند المعتزلة: أن مشيئة العبد هي: الواقعة، وأن الله لا يقدر على مشيئة العباد أن يردهم، فيدّعون أن مشيئتهم أقوى من مشيئة الله، وأن العبد يعصي الله قسرًا، وأن الله لو شاء شيئًا، وشاء العبد شيئاً غلبت مشيئة العبد، وأنه لا يهدي من يشاء، ولا يضل من يشاء، بل العباد يضرون أنفسهم، وينفعون أنفسهم، ولما كان كذلك سماهم السلف مجوس هذه الأمة؛ لأنهم أثبتوا مع الله خالقين.

وشبهتهم يقولون: إنه لو خلق الكفر والشرك والبدع والمعاصي ونحوها فيهم، ثم عذبهم عليها، لكان ظالمًا لهم، فلابد أنه أعطاهم مشيئة يختصون بها، يُثابون عليها، ويُعاقبون عليها، فهذه شبهتهم.

وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، أي: أنه-سبحانه- هو الذي يهدي من يشاء، ولكن مع ذلك الحجة البالغة لله تعالى، وكونه إذا شاء هداهم فهذا من أمره، ومن حكمته أنه أعطاهم قوة وقدرة يزاولون بها، ولو شاء لردهم، ولو شاء لمنعهم من مزاولة أي عمل، وأي قول، ولكن لما كان لهم هذه القوة يزاولون بها الأعمال فاختاروا هذا العمل أثيبوا عليه، وقد ذكر الله أن هناك صوارف للعبد، فمن ذلك أنه سلط عليهم الشياطين، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣]، أي: تدفعهم إلى المعاصي، والشياطين من خلق الله تعالى، ولو شاء لما سلطهم على الأمة، وكذلك ذكر الله أيضًا أن الإنسان له نفس أمارة بالسوء، ولو شاء لهدى تلك النفوس، ولما حصل انحراف لها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ - ٨]، أي: ألهمها، ومع ذلك جعل لها تمكناً ولها قدرة، وهذه النفس التي ألهمها ذلك هو قادر على أن يردها، ولكن جعل لها هذا الاختيار.

فيعتقد أهل السنة أن الله تعالى خالق كل شيء، ومن جملة ذلك خلق أفعال العباد، ودليلهم قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، أي: خلقكم وخلق أعمالكم، ولكن مع ذلك أعطاكم قدرة خاصة تزاولون بها أعمالكم؛ ولهذا قال النبي ﷺ: **(اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ)**[1]، واستدل بقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ -١٠]،

(١) أخرجه البخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٧) من حديث علي رضي الله عنه.

أثبت له فعلاً ﴿أَعْطَىٰ﴾، ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾، ﴿وَصَدَّقَ﴾، فأسند هذه الأفعال إليه، ثم ذكر أنه هو الذي ييسره، وهو الذي يعينه على ذلك، وأنه هو خالق كل شيء.

فالحاصل أن المعتزلة نفوا قدرة الله على أفعال العباد، وشبهتهم يقولون: لو خلق فيهم هذه الأفعال وعذبهم عليها، لكان ظالمًا لهم، كيف يخلق فينا المعاصي، ثم يعذبنا عليها؟

فنقول: إنكم عبيد الله، ولا تخرجون عن قدرته ومشيئته، ولكنه سبحانه مكّن لكم، وأعطاكم اختيارًا وقدرة، تُنسب بها أفعالكم إليكم؛ ولهذا يأمرهم وينهاهم، ولو كانوا لا يستطيعون ما أمرهم، في مثل قوله عز وجل: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣]، وقوله جل وعلا: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩]، ونحو ذلك من الآيات الكثيرة.

فأفعال العباد وإرادتهم **(مُتَعَلَّقُ الأَمْرِ وَالنَّهْيِ)**، فمشيئتهم تابعة لمشيئة الله، ولكن مع ذلك لهم أفعال، ولهم إرادة تقع بها أفعالهم، وهي متعلق الأمر والنهي، ولولا ذلك لما كلفوا، ولما أثبت الله لهم أفعالاً ولهم إرادة.

ثم يقول -رحمه الله-: **(وَأَنَّهُ لاَ يَتَنَافَى الأَمْرَانِ: إِثْبَاتُ مَشِيئَةِ اللهِ الْعَامَّةِ الشَّامِلَةِ لِلذَّوَاتِ وَالأَفْعَالِ وَالصِّفَاتِ، وَإِثْبَاتُ قُدْرَةِ الْعَبْدِ عَلَى أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ)**، بل نؤمن بذلك كله، فنثبت مشيئة الله العامة لكل شيء، وأنه لا يكون في الوجود إلا ما يريد، وأن حركات العباد كلها قد شاءها الله تعالى، وأرادها، وهذا هو المراد بالقدر، فإن شيخ الإسلام ابن تيمية [1] وغيره ذكروا أن الإيمان بالقدر على درجتين، كل درجة تتضمن شيئين:

---

(١) العقيدة الواسطية ص٣٥.

الدرجة الأولى: العلم، أن الله علم كل ما يحدث في الكون، ثم الكتابة، أن الله كتب كل شيء في هذا الوجود، فهذه الدرجة تتضمن العلم والكتابة.

الدرجة الثانية: الإرادة، أن الله أراد جميع ما في الكون، ثم خلقه. فهذه الدرجة تتضمن الإرادة والخلق.

ثم يقول شيخ الإسلام: «والعباد فاعلون حقيقة، والله خالقهم وخالق أفعالهم، والعبد هو: المؤمن والكافر والبر والفاجر والمصلي والصائم»، أي: تُسند إليه أفعاله التي زاولها؛ ولهذا شرع الله العقوبات في الدنيا، فشرع رجم الزاني، ولو كان ليس له حركة لما رُجم، وكذلك جلده وجلد الشارب، وقتل القاتل، وقتل المرتد وقتل الساحر ونحو ذلك من العقوبات، التي تدل على أن للعباد قدرة على الأفعال، وأنهم يُعاقبون عليها حتى تكون العقوبة زاجرة لهم، وزاجرة لأمثالهم عن مثل هذه العقوبات، أو هذه المعاصي والمحرمات، ثم قال: «وللعباد القدرة على أعمالهم، ولهم إرادة، والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم»[1] أي: تلك الإرادة داخلة في قدرة الله تعالى.

فلا يتنافى الأمران: أي نثبت مشيئة الله، ونثبت قدرة العبد، ولا منافاة بين ذلك.

فالمعتزلة بالغوا في قدرة العبد، ونفوا قدرة الله على أفعالهم؛ ولهذا يتعبدون ويجتهدون، فقد خلا الشيطان بينهم وبين تلك العبادات؛ لأنهم قد أفسدوها بهذا الاعتقاد.

وهناك طائفة نفوا قدرة العبد على أفعاله وأقواله، ويسمون (الجبرية)،

---

(١) العقيدة الواسطية ص٣٨.

فإنهم نفوا أن يكون للعباد قدرة على أفعالهم، وادعوا أنهم مجبورون على هذه الأفعال، وعلى المعاصي والمحرمات ونحو ذلك، ويقول قائلهم:

أَلْقَاهُ فِي الْبَحْرِ مَكْتُوفًا وَقَالَ لَهُ ... إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَبْتَلَ بِالْمَاءِ(١)

يمثلون العبد أنه ألقي في المعاصي، وليس له حيلة في أن يتخلص منها، وأن مثله كمثل إنسان كُتفت يداه ورجلاه، وألقي في البحر، وقيل له: لا تبتل أعضاؤك، ولا تبتل ثيابك، كيف يتقي ذلك وهو مُلقى قهرًا؟ هذا من شبهتهم.

وأنشد ابن القيم قول بعضهم:

وضعوا اللحم للبزاة ... على ذروتي عدن

ثم لاموا البزاة إذ ... خلعوا لهن الرسن

لو أرادوا صيانتي ... ستروا وجهك الحسن(٢)

يقول: إن العباد وهذه المعاصي مثل البزاة التي هي الصقور التي تأكل اللحوم، إذا وضعوا لها لحومًا على ذِروتي عدن، يعني على ذروتي جبل -مثلاً- وأطلقوا لهن الرسن، ومع ذلك يلومونها، يا بزاة لا تأكلي هذا اللحم، كيف لا تأكله وقد وضع أمامها، وأطلقوا لها ما كانت مربوطة به، هذا من شبهتهم.

---

(١) نسب هذا البيت إلى عبد الغني بن إسماعيل الدمشقي النابلسي، المتوفى سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف. انظر ديوانه (ص٢٨)، والصواب أنه قديم فقد أورده ابن القيم في كثير من كتبه.

(٢) هذه الأبيات لأبي بكر الشبلي. انظر: تاريخ بغداد (١٢/ ٩٥)، وطريق الهجرتين (١/ ١٥٢). والرسن: هو الحبل.

ومنهم ذلك اليهودي أو المرجئ أو الجبري الذي دخل على شيخ الإسلام، وألقى عنده قصيدة يذكر فيها أنهم مجبورون، في أولها قوله:

أَيَا عُلَمَاءَ الدِّينِ ذِمِّيُّ دِينِكُمْ تَحَيَّرَ دُلُّوهُ بِأَوْضَحِ حُجَّة
إِذَا مَا قَضَى رَبِّي بِكُفْرِي بِزَعْمِكُمْ وَلَمْ يَرْضَهُ مِنِّي فَمَا وَجْهُ حِيلَتِي
دَعَانِي وَسَدَّ الْبَابَ عَنِّي فَهَلْ إِلَى دُخُولِي سَبِيلٌ بَيِّنُوا لِي قَضِيَّتِي

وقد أجابه شيخ الإسلام - رحمه الله - نظمًا بمنظومة طويلة زادت على مائة وعشرين بيتًا[١]، مطلعها:

سُؤَالُكَ يَا هَذَا سُؤَالُ مُعَانِدٍ مُخَاصِمِ رَبِّ الْعَرْشِ بَارِي الْبَرِيَّةِ
فَهَذَا سُؤَالٌ خَاصَمَ الْمَلأَ الْعُلا قَدِيمًا بِهِ إِبْلِيسُ أَصْلُ الْبَلِيَّةِ
وَمَنْ يَكُ خَصْمًا لِلْمُهَيْمِنِ يَرْجِعَنْ عَلَى أُمِّ رَأْسٍ هَاوِيًا فِي الْحَفِيرَةِ
وَيُدْعَى خُصُومُ اللَّهِ يَوْمَ مَعَادِهِمْ إِلَى النَّارِ طُرًّا مَعْشَرَ الْقَدَرِيَّةِ

إلى آخرها.

هؤلاء يفعلون هذه الأفعال المحرمة، ويحتجون بالقدر، ولا حجة لهم فيه، فإذا لامهم أحد قال أحدهم: هذا مكتوب علي، ما هداني الله، ولو هداني لكنت مسترشدًا، والله هو الذي أضلني.

وقد رأيت بعض الشباب ونصحتهم، وقلت لهم: توجهوا إلى المسجد، فنطق أحدهم بقوله: الله ما هداني، كيف أذهب والله ما هداني، كأنه استسلم إلى أنه من الضالين.

---

(١) تسمى القصيدة التائية وقد شرحها سماحة شيخنا عبدالله بن جبرين حفظه الله وشرحه مطبوع ضمن سلسلة شروح الطريق.

وقد رُفع إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجل قد سرق، فأمر بقطع يده، فقال عمر رضي الله عنه للسارق: (ما حملك؟) أي: على السرقة، قال السارق: «قضاء الله» أي: إنه مكتوب عليَّ، وهذا قدر الله، فقطع يده، وقال: (هذه للسرقة)، وجلده وقال: (هذه لكذبك على الله)[1].

ولما توجه عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الشام وأقبل عليها، ذُكر له وقوع الطاعون بالشام، فعزم على الرجوع، فقال له أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه: (أَفِرَارًا من قَدَرِ اللَّهِ؟) فقال عُمَرُ رضي الله عنه: (لو غَيْرُكَ قَالَهَا يا أَبَا عُبَيْدَةَ، نعم نَفِرُّ من قَدَرِ اللَّهِ إلى قَدَرِ اللَّهِ)[2]، فالله تعالى هو الذي قدَّر أننا نرجع، وإذا قدَّر الله تعالى شيئًا فإنه لابد أن يكون، وإذا كتبه في اللوح المحفوظ فلابد أن يقع.

فالحاصل أنه لا يتنافى إثبات مشيئة الله، وإثبات قدرة العبد، فمشيئة الله عامة لكل ما في الكون، وقدرة العباد واقعة على أقوالهم وأفعالهم، ولا يجوز الاحتجاج بعموم المشيئة على المعاصي، كما يفعل المشركون، قال الله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، فهذا من شبهاتهم، ثم قال عز وجل: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، وقال جل وعلا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [النحل: ٣٥]، هذه أيضًا من شبههم، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ [يس: ٤٧]، يحتجون بمشيئة

---

(١) أخرج هذا الأثر الرامهرمزي في المحدث الفاصل (ص٣١٧)..

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٢٩)، ومسلم (٢٢١٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الله، نقول: نعم، إن مشيئة الله عامة، وأنه -سبحانه- لو شاء لجعل الناس كلهم أغنياء، ولكن ابتلاكم أيها الأثرياء بالمال، وابتلاكم بهؤلاء الفقراء، ولله الحجة البالغة على عباده.

فلا يجوز إنكار قدرة العباد، كقول المجبرة الذين يقولون: ليس للعبد قدرة، ولا يجوز إنكار قدرة الله، كالذين يقولون: ليس لله قدرة على أفعال العباد.

ثم يقول الشيخ - رحمه الله -: **(وَلاَ يَتِمُّ تَوْحِيدُ الْعِبَادَةِ حَتَّى يُخْلِصَ الْعَبْدُ للهِ - تَعَالَى - فِي إِرَادَتِهِ، وَأَقْوَالِهِ، وَأَفْعَالِهِ، وَحَتَّى يَدَعَ الشِّرْكَ الأَكْبَرَ، الْمُنَافِي لِلتَّوْحِيدِ كُلَّ الْمُنَافَاةِ، وَهُوَ: أَنْ يَصْرِفَ نَوْعًا مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ لِغَيْرِ اللهِ تَعَالَى)**، يتعلق هذا الكلام بتوحيد العبادة، الذي أمر الله تعالى به، والذي خلق العباد له، بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، أي: ليخلصوا العبادة لي، وقال عز وجل: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، فتوحيد العبادة إخلاصها كلها لله تعالى.

كيف يكون مخلصًا لله تعالى في عبادته؟ أي: يكون معتقدًا أن جميع ما يحدث في الكون فإنه مراد لله، وكذلك يكون مؤمنًا بأن ما أنزله على رسله فإنه كلامه وفيه شرعه، ومؤمنًا بأن كل ما يحدث فإنه فعله، وأنه سبحانه فعال لما يريد، كذلك أيضًا يخلص في جميع إرادته، أي: أن تكون تابعة لمراد الله، ويخلص في أقواله وأفعاله، فلا يتكلم إلا بما يحبه الله، وكذلك أفعاله لا يفعل شيئًا إلا إذا كان من شرع الله، فلا يفعل ما ينافي طاعة الله وعبادته، وكذلك يدع الشرك الأكبر، المنافي للتوحيد كل المنافاة، فإن تحقيق التوحيد تخليصه وتصفيته من شوائب الشرك، والبدع والمعاصي؛ لأن الشرك ضد التوحيد، فهو ينافيه،

ولا يمكن أن يجتمعا، فيُقال: مخلص مشرك، فلابد أن يكون أحدهما هو الغالب، فالشرك ينافي التوحيد كل المنافاة، ويبطله كل الإبطال؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، وقوله عز وجل: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، فلا يجوز أن يصرف نوعًا من أنواع العبادة لغير الله، وأنواع العبادة التي أمر الله بها كثيرة مثل: الدعاء، والخوف، والتوكل، والإنابة، والرجاء، والرغبة، والرهبة، والخشوع، والخشية، والاستعانة، والاستغاثة، والذبح، والاستعاذة، والنذر، وغيرها، فلا يجوز أن يصرف شيئًا من هذه لغير الله تعالى، ومن فعل ذلك فإنه مشرك، فإخلاص العبادة لله تعالى واجب؛ لهذه الآية: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، والدين الخالص: هو الصافي الذي لا يشوبه ما يكدره، بل يكون سالمًا من المخالطة التي قد تفسده، وقد أمر الله بالإخلاص في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢ ـ ٣]، وفي قوله عز وجل: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: ١٤]، وفي قوله جل وعلا: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ١١]، وغير ذلك من الأدلة.

فتوحيد العبادة هو الذي أنكره المشركون، وجعلوا مع الله معبودات أخرى، فهو الذي دعت إليه الرسل، وبدؤوا دعوتهم به، في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقوله عز وجل: ﴿وَسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾

[الزخرف: ٤٥]، وقال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [المؤمنون: ٢٣]، وقال جل وعلا عن هود عليه السلام: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٦٥]، وكذا قال صالح وشعيب عليهما السلام، فهو الذي بُعثت به الرسل، حيث إن قومهم أشركوا، وجعلوا مع الله آلهة أخرى، سموها آلهة؛ لأن قلوبهم تألهها وتعظمها، فهذا هو السبب في أنهم سموا مشركين؛ لأنهم جعلوا مع الله آلهة أخرى.

وقد تبعهم القبوريون المتأخرون، الذين يعبدون القبور، ويعبدون الأموات، كالذين أدركهم الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله، وقد قال فيه الشيخ ملا عمران بن رضوان:

الشيخ شاهد بعض أهل جهالة ... يدعون أصحاب القبور الهمّد
تاجاً وشمسان ومن ضاهاهما ... من قبة أو تربة أو مشهد
يرجون منهم قربة وشفاعة ... ويؤملون كذاك أخذاً باليد[1]

هؤلاء لم يخلصوا الدين لله تعالى، فصرفوا منه كثيرًا لهؤلاء الأموات، وجعلوا أقوالهم أو أفعالهم بعضها لغير الله، وادعوا أنهم يتوسلون بهم، ويتوسطون بهم على الله تعالى، وهذا مثل المشركين الأولين، ذكر الله عنهم أنهم يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وذكر تعالى عنهم أنهم يقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، فلم يكونوا مخلصين.

فلابد أن يكون العبد مخلصًا ومتوجهًا بقلبه وقالبه إلى ربه، صارفًا جميع

---

(١) «البيان المبدي لشناعة القول المجدي» للشيخ سليمان بن سحمان (ص٣٠).

أنواع العبادة إلى الله وحده، ولا يصرف منها شيئًا لغير الله، فيترك الشرك الأكبر، الذي هو شرك المشركين، الذين جعلوا مع الله آلهة أخرى، وسموها آلهة، وصرفوا بعض عباداتهم لغير الله تعالى.

يقول الشيخ - رحمه الله -: «وَكَمَالُ ذَلِكَ أَنْ يَدَعَ الشِّرْكَ الأَصْغَرَ، وَهُوَ: كُلُّ وَسِيلَةٍ قَرِيبَةٍ يُتوسَّلُ بِهَا إِلَى الشِّرْكِ الأَكْبَرِ، كَالْحَلْفِ بِغَيْرِ اللهِ، وَيَسِيرِ الرِّيَاءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ»، أي: لا يتم توحيد العبادة إلا بترك الشرك بنوعيه: الشرك الأكبر، والشرك الأصغر، وكلاهما يُعاقب عليه، وهو داخل في مسمى الشرك الذي لا يُغفر، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقال عز وجل: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢]، فُسرت هذه الآية بالشرك الأكبر.

مثل الشيخ - رحمه الله - للشرك الأصغر بالحلف بغير الله، كالحلف بالنبي، أو بالولي، أو بشرف الإنسان مثلاً - أو بنسبه، أو بآبائه، أو بنحو ذلك، فقد ثبت أنه ﷺ مرة سمع عمر رضي الله عنه يحلف بأبيه، فقال: **(مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمُتْ)**[١]، وقال: **(مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أو أَشْرَكَ)**[٢]، قال عمر رضي الله عنه: (ما حلفت بغير الله لا ذاكراً ولا آثراً)[٣]، يعني ولا ناقلاً عن غيري.

وكذلك أيضًا الشرك الأصغر منه الرياء، فيسير الرياء يُسمى شركًا أصغر، وكبيره يُسمى أكبر، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله

---

(١) أخرجه البخاري واللفظ له (٢٦٧٩)، ومسلم (١٦٤٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥)، وأحمد (٢/١٢٥)، و ابن حبان (١٠/٢٠٠)، والحاكم (١/١١٧)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أخرج هذا الأثر ابن أبي شيبة في مصنفه (٣/٧٨).

ﷺ يقول: **(إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتي به فعرفه نعمه فعرفها قال: فما عملت فيها؟)** قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، **قال: (كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال جريء فقد قيل)**، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتي به فعرفه نعمه فعرفها قال: **(فما عملت فيها؟)** قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: **(كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل)**، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتي به فعرفه نعمه فعرفها قال: **(فما عملت فيها؟)**، قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: **(كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار)**[1].

ثم يكون الرياء في النفقة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [النساء: ٣٨]، ويكون في الصلاة قال عز وجل: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال جل وعلا: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ [الماعون: ٥ - ٦]، ونحو ذلك من الأدلة، فتوحيد العبادة إخلاص العبادة لله وحده، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾ [الزمر: ١١ـ ١٤]، فمن أخلص العبادة لله، لم يصرف منها شيئًا لغير الله بجميع أنواعها، وبذلك يكون قد كمَّل توحيد العبادة.

---

(١) صحيح مسلم ج٣ص١٥١٣.

وَالنَّاسُ فِي التَّوْحِيدِ عَلَى دَرَجَاتٍ مُتَفَاوِتَةٍ بِحَسْبِ مَا قَامُوا بِهِ مِنْ مَعْرِفَةِ اللهِ، وَالْقِيَامِ بِعُبُودِيَّتِهِ، فَأَكْمَلُهُمْ فِي هَذَا الْبَابِ، مَنْ عَرَفَ مِنْ تَفَاصِيلِ أَسْمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ، وَأَفْعَالِهِ، وَآلائِهِ، وَمَعَانِيهَا الثَّابِتَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَفَهِمَهَا فَهْمًا صَحِيحًا، فَامْتَلأَ قَلْبُهُ مِنْ مَعْرِفَةِ اللهِ، وَتَعْظِيمِهِ، وَإِجْلاَلِهِ، وَمَحَبَّتِهِ، وَالإِنَابَةِ إِلَيْهِ، وَانْجِذَابِ جَمِيعِ دَوَاعِي قَلْبِهِ إِلَى اللهِ تَعَالَى، مُتَوَجِّهًا إِلَيْهِ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ.

وَوَقَعَتْ جَمِيعُ حَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ فِي كَمَالِ الإِيمَانِ، وَالإِخْلاصِ التَّامِ، الَّذِي لا يَشُوبُهُ شَيْءٌ مِنَ الأَغْرَاضِ الفَاسِدَةِ، فَاطْمَأَنَّ إِلَى اللهِ تَعَالَى مَعْرِفَةً وَإِنَابَةً، وَفِعْلاً، وَتَرْكًا، وَتَكْمِيلاً لِنَفْسِهِ، وَتَكْمِيلاً لِغَيْرِهِ، بِالدَّعْوَةِ إِلَى هَذَا الأَصْلِ الْعَظِيمِ، فَنَسْأَلُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْنَا بِذَلِكَ.

الشرح:

ذكر -رَحِمَهُ اللَّهُ- أقسام الناس في التوحيد، وذكر أنهم متفاوتون في التوحيد، وذلك (**بِحَسْبِ مَا قَامُوا بِهِ مِنْ مَعْرِفَةِ اللهِ**)، فكل من كان بالله عارفًا، فإنه يكون أكمل توحيدًا، ومن كلام بعض السلف: «من كان بالله أعرف، كان منه أخوف»[1]، فمعرفة الله تتفاوت في القلوب، بسبب الوسائل والأسباب التي تسبقها، وقد قيل تحصل معرفة العبد لربه:

أولاً: بالتفكر في نفسه، فيتفكر في مبدأ خلقه، وفي إتمام خلقه، وفي منة الله عليه أن كمَّل خلقه، أتم خلق وأكمله.

---

(١) نسب هذا القول للإمام أحمد رحمه الله، البيهقي في شعب الإيمان (١/ ٤٨٧)، ونسبه ابن كثير في البداية والنهاية (١٠/ ٣١٨)، إلى أحمد بن عاصم الإنطاكي.

ثانيًا: ثم بتأمله وتفكره في هذا الكون العلوي والسفلي، وبتفكره في آيات الله تعالى، وفي مخلوقاته التي تكررت في القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [البقرة: ٢١- ٢٢]، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وفي كثير من الآيات التي يذكر الله فيها هذه الآيات الكونية، والمخلوقات العلوية والسفلية، فإن العلم بها يحمل العبد على القيام بالعبادة أكمل من غيره.

وكذلك أيضًا العلم بفضل الله على العباد، إذا تأمل في فضائل الله - عز وجل - على عباده، وما أعطاهم، وما تفضل عليهم به، بأن أسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، وأتم عليهم ما يحتاجون إليه، بإنزاله من السماء ماءً، وبإنباته لهم الأرض، وبتسخيره لهم البهائم ونحوها، وبتسخيره لهم الأرض وما فيها، والبحر وما فيه، وما أشبه ذلك، فكل هذه آيات عظيمة نصبها الله تعالى فمن قام بها، ومن عرفها حق المعرفة وتأملها، فإن قيامه بالعبودية أكمل من غيره.

قوله - رحمه الله -: «فَأَكْمَلُهُمْ فِي هَذَا الْبَابِ»، أي: في معرفة الله.

قوله: «مَنْ عَرَفَ مِنْ تَفَاصِيلِ أَسْمَاءِ اللهِ، وَصِفَاتِهِ، وَأَفْعَالِهِ، وَآلائِهِ»، يعني: بدأ بمعرفة أسماء الله تعالى، وصفاته، وأفعاله، وآلائه، وتفاصيلها وما يُستفاد منها، وأن أسماء الله تعالى أسماء حسنى، وأنها دالة على ذاته، وأنه يُدعى بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وأنها

غير محصورة، والتسعة والتسعون التي ذُكرت في الحديث إجمالاً هي من جملة أسمائه، لا أنها جميعها.

وكذلك تفاصيل صفاته، فإنه تعالى موصوف بالأسماء الحسنى، وبالصفات العلا، فكل صفة فيها شرف وفضل يتصف بها العباد، فالله أولى بها.

والعباد يتفاوتون فأفضلهم أعلمهم، وأفضلهم أفهمهم، وأفضلهم أقواهم، فكذلك نثبت هذه الصفات لله تعالى، فنثبت له العلم، ونثبت له القدرة، ونثبت له الحكمة، ونثبت له صفات الكمال كلها، فأكمل الخلق في باب المعرفة الذي يعرف تفاصيل أسماء الله تعالى، ودلالات كل اسم، وكذلك تفاصيل صفاته، وأنه موصوف بصفات الكمال، منزه عن صفات النقص، وأن كل صفة رذيلة يتنزه عنها العبد، أو يتحاشاها، فالرب تعالى أولى أن يُنزه عنها.

وكذلك تفاصيل أفعاله، أنه سبحانه يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وأنه فعال لما يريد، ولا يفعل شيئًا عبثًا، ولم يخلق شيئًا عبثًا، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وقوله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨ - ٣٩]، وقوله جل وعلا: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، فنعرف تفاصيل أفعاله، وكل ما في الكون فإنه فعل له، هو الذي قدره، وهو الذي خلقه.

وكذلك أيضًا تفاصيل آلائه، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ [النجم: ٥٥]، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣]، آلاؤه: نعمه وفضائله على عباده، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، النعم هي:

الآلاء والفضائل التي منَّ بها على عباده، قال عز وجل: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

قوله - رحمه الله -: «وَمَعَانِيهَا الثَّابِتَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ»، أي: ومعاني الأسماء، ومعاني الصفات، ومعاني الأفعال، ومعاني الآلاء الثابتة في الكتاب والسنة، أي أن هذه كلها مأخوذة من الكتاب والسنة، نقتصر في أسماء الله على الكتاب والسنة، وكذلك في صفاته، وأفعاله، وآلائه، كلها مأخوذة من الوحيين: كتاب الله تعالى وسنة نبيه.

قوله - رحمه الله -: «وَفَهْمِهَا فَهْمًا صَحِيحًا»، واجب من عرف تفاصيلها، ثم فهمها فهمًا صحيحًا، أن يقوم بالعبادة أكمل من غيره؛ لأنه علم تفاصيلها، فعظم قدر ربه في قلبه، وجد واجتهد في توحيد العبادة، وسلك أعلى درجات العبادة.

قوله - رحمه الله -: «فَامْتَلأَ قَلْبُهُ مِنْ مَعْرِفَةِ اللهِ»، حيث فكر في عظمة الله، وفكر في صفاته العُلا، وكذلك امتلأ قلبه من معرفة ربه، وامتلأ من «وَتَعْظِيمِهِ، وَإِجْلاَلِهِ، وَمَحَبَّتِهِ، وَالإِنَابَةِ إِلَيْهِ»، فلا يكون في قلبه أعظم من الله تعالى، ولا أجل منه، ويحب ربه بكل أنواع المحبة، ويقدم محبة الله على محبة كل شيء، كما في قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال النبي ﷺ: **(ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا)**[1]، وتصديق ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٤١)، ومسلم (٤٣) من حديث أنس رضي الله عنه.

كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ ﴾ [التوبة: ٢٤]، فلابد لمن عرف معاني الكتاب والسنة، ومعاني الأسماء والصفات، أن يحب ربه بأنواع المحبة، وأن ينيب إليه، ويتوب إليه.

قوله -رحمه الله-: «وَانْجِذَابِ جَمِيعِ دَوَاعِي قَلْبِهِ إِلَى اللهِ تَعَالَى»، أي: الدوافع التي في قلبه، تنجذب إلى ربه سبحانه، وأن يتوجه إليه وحده لا شريك له، وإذا لم يكن كذلك فإن محبته ناقصة، ولهذا يقول ابن القيم - رحمه الله -:

أتحب أعداء الحبيب وتدعي حباً له ما ذاك في إمكان[1]

فالذي يحب الله تعالى، يقدم محبته على محبة كل شيء، ويقدم أمره وطاعته على طاعة كل مخلوق، وعلى محبة كل مخلوق، هكذا يكون العارف العالم بتفاصيل أسماء الله، وصفاته، وأفعاله، وآلائه.

ثم يقول الشيخ -رحمه الله-: «وَوَقَعَتْ جَمِيعُ حَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ فِي كَمَالِ الإِيمَانِ وَالإِخْلاصِ التَّامِ»، حركات العبد وسكنات العبد، إذا كان كذلك عارفًا بالله، ومعظمًا له، ومحبًا له، ومنيبًا إليه، وقد انجذب جميع دواعي قلبه عليه، فلابد أن تكون حركاته وسكناته في كمال الإيمان، وإخلاص تام، أي: فيما يكمل إيمانه، وفيما يكون سببًا في إخلاص عبادته لله تعالى الإخلاص التام **«الَّذِي لا يَشُوبُهُ شَيْءٌ مِنَ الأَغْرَاضِ الفَاسِدَةِ»**، بل يكون كله فيما يحبه الله تعالى، لا يشوبه شيء يعني: لا يخالطه شيء من الأغراض الفاسدة، بحيث يميل قلبه إلى محبة غير الله تعالى، أو إلى تعظيم غير الله تعالى، فإذا كمل إيمانه وإخلاصه اطمأن إلى الله تعالى، واطمأن إلى معرفته والإنابة إليه، والتوبة إليه،

---

(١) قصيدة ابن القيم مع شرح ابن عيسى (٢/ ٢٦٤).

«فَاطْمأَنَّ إِلَى اللهِ تَعَالَى مَعْرِفَةً وَإِنَابَةً، وَفِعْلاً، وَتَرْكًا»، فيكون فعله لله، وتركه لله، وعطاؤه لله، ومنعه لله، وحبه في لله، وبغضه في الله، ومعاداته في الله، فيطمئن إلى الله تعالى، معرفة وإنابة وفعلاً وتركًا.

قوله - رَحِمَهُ اللهُ -: «وَتَكْمِيلاً لِنَفْسِهِ، وَتَكْمِيلاً لِغَيْرِهِ»، تكميله لنفسه برفعه لنفسه عن المحقرات وعن النقائص، والعيوب ونحوها، ثم ينتقل إلى تكميل غيره، بالدعوة إلى هذا الأصل العظيم، فإذا كمَّل نفسه سعى في تكميل غيره **«بِالدَّعْوَةِ إِلَى هَذَا الأَصْلِ الْعَظِيمِ»**، الذي هو معرفة الله تعالى بتفاصيل أسمائه، وصفاته، وأفعاله، وآلائه، ومعانيها، وفهمها فهمًا صحيحًا، يسبب أن جميع حركاته وسكناته تكون في كمال الإيمان والإخلاص التام لله تعالى، فيدعو غيره إلى هذا الأصل العظيم، ويرغب غيره، ويحرص على هداية الخلق، ويُبين لهم.

ثم ختم الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ - هذا بقوله: «فَنَسْأَلُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْنَا بِذَلِكَ»، هذا رغبة إلى الله تعالى، وأن ذلك من فضله وكرمه علينا، يتفضل علينا بذلك، أي: بمعرفة أسمائه، وصفاته، وأفعاله، ويتفضل علينا بتوفيقنا، وإعانتنا؛ حتى تكون حركاتنا وسكناتنا خالصة لله تعالى، لا يشوبها شيء من الأغراض الفاسدة.

الأَصْلُ الثَّانِي

الإِيمَانُ بِنُبُوَّةِ جَمِيعِ الأَنْبِيَاءِ عُمُومًا، وَنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ خُصُوصًا

وَهَذَا الأَصْلُ: مَبْنَاهُ عَلَى أَنْ يَعْتَقِدَ وَيُؤْمِنَ بِأَنَّ جَمِيعَ الأَنْبِيَاءِ قَدْ اخْتَصَّهُمُ اللهُ بِوَحْيِهِ وَإِرْسَالِهِ، وَجَعَلَهُمْ وَسَائِطَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ، فِي تَبْلِيغِ شَرْعِهِ وَدِينِهِ.

وَأَنَّ اللهَ أَيَّدَهُمْ بِالبَرَاهِينِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِهِمْ، وَصِحَّةِ مَا جَاؤوا بِهِ.

الشرح:

قال الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ -: «الأَصْلُ الثَّانِي: الإِيمَانُ بِنُبُوَّةِ جَمِيعِ الأَنْبِيَاءِ عُمُومًا، وَنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ خُصُوصًا»، جعل هذا أصلاً؛ لأنه يتفرع عنه اتباع الرسل، وبالأخص نبينا محمد ﷺ، وطاعتهم ومحبتهم، والعمل بما جاؤوا به من الشريعة، واعتقاد أنه من الله تعالى، فيكون أصلاً له فروع، وهذه الفروع لابد من الإيمان بها، والعمل بها، وأنها واجبة على المكلف.

أولاً: الأنبياء: هم الذين أنزل الله تعالى عليهم الوحي، بواسطة الرسول الملكي، وأمرهم بأن يبلغوا ما أُنزل إليهم، وأحدهم النبي، مشتق من النبأ، الذي هو الخبر، كما قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ [النبأ: ١-٢]، أي: عن الخبر العظيم.

ثم إن منهم من كلفه الله، وألزمه بأن يبلغ ما أنزل إليه، وأن يدعو أمته إلى الشرع، الذي أُنزل عليه، ويحررهم من الكفر به، ورده وتركه، ويخبرهم بالوعيد الشديد لمن كذبه، ولمن خرج عن طاعته، فهؤلاء هم رسل الله، الذين أنزل الله عليهم الوحي والشرع، ثم كلفهم أن يبلغوه، ثم عاقب الأمم التي

كذبتهم، وردت عليهم ما أُرسلوا به، مثل نوح - عليه السلام - لما رد قومه عليه أغرقهم بالغرق العام، لقوله تعالى عنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾ [الشعراء: ١١٧ - ١١٨ - ١٢٠].

ثم نبي الله هود عليه السلام أهلك الله قومه بريح صرصر عاتية، ثم صالح عليه السلام أرسله الله إلى ثمود، وأهلكهم بالصيحة، وكذلك شعيب عليه السلام أهلك الله قومه بما ذكر من الظلة، وكذلك لوط عليه السلام أهلك الله قومه لما كذبوه.

فالحاصل أن هؤلاء أنبياء ورسل، وأن الله تعالى كلفهم بإبلاغ ما أُنزل إليهم، وكذلك بقية الرسل وهم كثير، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

فيجب الإيمان بهم جملة، بأن نعتقد بأنهم رسل الله، وأنهم صادقون، ومصدقون فيما بلغوا به، وأن ما جاؤوا به فإنه من الله تعالى شرعًا وتكليفًا، سواء ما يتعلق بالعقائد، أو ما يتعلق بالأعمال والآداب ونحوها.

وأن الله تعالى ختمهم بنبينا صلى الله عليه وسلم، وخصه بخصائص: منها:

أنه خاتم الأنبياء والرسل، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

ومنها: أن رسالته عامة، لقوله عز وجل: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ومنها: أنها باقية إلى يوم القيامة، وأن شريعته صالحة لكل زمان ومكان.

يقول الشيخ - رَحِمَهُ ٱللَّهُ -: «وَهَذَا الأَصْلُ: مَبْنَاهُ عَلَى أَنْ يَعْتَقِدَ»، أي يعتقد العبد «وَيُؤْمِنَ بِأَنَّ جَمِيعَ الأَنْبِيَاءِ قَدْ اخْتَصَّهُمُ اللهُ بِوَحْيِهِ وَإِرْسَالِهِ»، وحملهم شريعته، «وَجَعَلَهُمْ وَسَائِطَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ، فِي تَبْلِيغِ شَرْعِهِ وَدِينِهِ»، فيعتقد العبد المؤمن أن أنبياء الله تعالى الذين أنزل عليهم الوحي بواسطة الرسول الملكي خصهم الله بالوحي، الذي هو شرع وأمر ونهي، وقد خصهم الله بذلك الشرع الذي أنزله عليهم، وسماه وحيًا؛ لأنه نزل بواسطة الملك، وبلغه الملك إليهم، وقد بلغ إلى كل نبي من الأنبياء، ورسول من الرسل، ما أمره الله تعالى به، وسماه وحيًا، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣]، فسماه وحيًا، وقال عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١]، فسماه وحيًا.

ثم إن الله تعالى أرسلهم إلى أقوامهم بهذه الشريعة، واحدهم رسول، يعني: مرسل من ربه، رسالته هي الشريعة التي أوحاها الله إليه، وأمره بأن يبلغ هذه الرسالة.

كذلك جعلهم الله وسائط بينه وبين خلقه، في تبليغ الشرع والدين، فالملك واسطة بين الرسول وبين الله، فيأمر الله الملك بأن ينزل إلى النبي ﷺ بكذا وكذا، كما في الحديث: (**إذا أراد الله أن يوحي بالأمر، تكلم بالوحي، أخذت السموات منه رجفة - أو قال: رعدة- شديدة خوف أمر الله، فإذا سمع بذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجدا، فيكون أول من يرفع رأسه جبرائيل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد**)[1]، فأخبر بأنه يتكلم بالوحي، وترجف

---

(١) سبق تخريجه.

السموات، وجاء وصف الملائكة في هذا الموقف في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (**إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً**) لقوله كالسلسة على صفوان[١].

فالحاصل أن: الله جعلهم وسائط يحملون شرعه، ويبلغونه إلى أممهم، ويبينون لهم الشرع، الذي جاؤوا به من الله تعالى، حتى تؤمن تلك الأمم بذلك الشرع، ويعملوا به، ويقبلوا هذه الرسالة، التي جاءتهم بواسطة ذلك الرسول البشري، ويكونوا من أتباعه، وقد أبلغهم بأن واجب الرسول التبليغ، وأن على المكذبين والمعرضين أن يحذروا من العذاب؛ لأنهم إذا امتنعوا من القبول والتصديق أوشك أن يعمهم الله بعقاب، وأن ينزل عليهم عذاباً من السماء - والعياذ بالله - هكذا جعل الله الرسل وسائط بينه وبين خلقه.

يقول الشيخ - رحمه الله -: «وَأَنَّ اللهَ أَيَّدَهُمْ بِالبَرَاهِينِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِهِمْ، وَصِحَّةِ مَا جَاؤوا بِهِ»، والبراهين هي: المعجزات التي أيدهم بها، الدالة على صدقهم، وعلى صحة رسالتهم، فأيد كلاً منهم بما يدل على صدقه، وصحة ما جاء به، فذكر الله تعالى لنا بعض معجزات الأنبياء، وذكر أن عيسى - عليه السلام - أيده الله بمعجزات:

منها: أنه يبرئ الأكمه والأبرص، ويحيى الموت بإذن الله، كما في قوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٠١).

ومنها: أنه يكلم الناس في المهد وكهلاً، كما في قوله جل وعلا: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾ [آل عمران: ٤٦].

فهذا من المعجزات الخارقة للعادة، وذكر أيضًا عن موسى -عليه السلام- أنه أيده بمعجزات: منها خروج يده بيضاء من غير سوء كما في قوله تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [طه: ٢٢]، أي: أن يده إذا أدخلها في جيبه ثم أخرجها، خرجت بيضاء تلألأ، كأنها فلقة قمر.

ومنها: أن معه عصا، إذا ألقاها انقلبت حية: ﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾، آية على صدقه.

ومنها: أن الله فلق له البحر، ومشى معه هو وقومه، وأغرق فرعون وقومه، لما توسطوا في ذلك البحر.

ومنها: ما أيده به لما كان هو وقومه في التيه، حيث أنزل عليهم المن والسلوى، وظلل عليهم الغمام، ونحو ذلك من الآيات.

وإرساله على فرعون وقومه العقوبات، في قوله عز وجل: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ﴾ [الأعراف: ١٣٣]، فهي دالة على صدق ما جاء به.

وكذلك غيره من الأنبياء.

وكذلك ما أيد به نبينا ﷺ، وقد أكثر العلماء من تتبع الأدلة التي هي معجزات للنبي ﷺ، وسموها «دلائل النبوة»، وصنفوا فيها، كما صنف في ذلك البيهقي كتابه الكبير «دلائل النبوة»، وكذلك أبو نعيم له كتاب أيضًا كبير (دلائل النبوة)، وابن كثير في آخر السيرة النبوية من تاريخه ذكر دلائل النبوة، ونحو ذلك، وكل هذه براهين دالة على صدقهم.

وَأَنَّهُمْ أَكْمَلُ الْخَلْقِ عِلْمًا وَعَمَلاً، وَأَصْدَقُهُمْ، وَأَبَرُّهُمْ، وَأَكْمَلُهُمْ أَخْلاقًا وَأَعْمَالاً، وَأَنَّ اللهَ خَصَّهُمْ بِخَصَائِصَ وَفَضَائِلَ، لاَ يَلْحَقُهُمْ فِيهَا أَحَدٌ، وَأَنَّ اللهَ بَرَّأَهُمْ مِنْ كُلِّ خُلُقٍ رَذِيلٍ، وَأَنَّهُمْ مَعْصُومُونَ فِيمَا يُبَلِّغُونَ عَنِ اللهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ لاَ يَسْتَقِرُّ فِي خَبَرِهِمْ وَتَبْلِيغِهِمْ إِلا الْحَقُّ وَالصَّوَابُ.

وَأَنَّهُ يَجِبُ الإِيمَانُ بِهِمْ، وَبِكُلِّ مَا أُوتُوهُ مِنَ اللهِ، وَمَحَبَّتُهُمْ وَتَعْظِيمُهُمْ.

وَأَنَّ هَذِهِ الأُمُورَ ثَابِتَةٌ لِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى أَكْمَلِ الْوُجُوهِ.

وَأَنَّهُ يَجِبُ مَعْرِفَةُ جَمِيعِ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الشَّرْعِ جُمْلَةً وَتَفْصِيلاً، وَالإِيمَانُ بِذَلِكَ، وَالْتِزَامُ طَاعَتِهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، بِتَصْدِيقِ خَبَرِهِ، وَامْتِثَالِ أَمْرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَهْيِهِ.

وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ خَاتِمُ النَّبِيِّينَ، قَدْ نَسَخَتْ شَرِيعَتُهُ جَمِيعَ الشَّرَائِعِ، وَأَنَّ نُبُوَّتَهُ وَشَرِيعَتَهُ بَاقِيَةٌ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، فَلا نَبِيَّ بَعْدَهُ، وَلاَ شَرِيعَةَ غَيْرُ شَرِيعَتِهِ فِي أُصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ.

الشرح:

يقول الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ-: «وَأَنَّهُمْ أَكْمَلُ الْخَلْقِ عِلْمًا وَعَمَلاً»، بمعنى: أن الله تعالى اختارهم على غيرهم، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]، فاختار النبي الذي كَمل في عقله، وفي علمه، وفي عمله، وفي صدقه وبره، وفي خلقه، وفي قرباته وأعماله التي يعملها، وهذا لاختيار الله لهم، وإذا تأملت حال النبي مما نُقل إلينا عرفت بذلك أن الله اختارهم على علم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢]، وكذلك اختار لهم

أصحابًا صالحين صادقين، كما اختار لنبينا ﷺ أصدق الناس وأفضلهم، وهم صحابته رضي الله عنهم، فالأنبياء أكمل الخلق علمًا بما علمهم الله به، وعملاً صالحًا أعانهم الله عليه، وأيدهم وقواهم إلى أن تقربوا به إلى ربهم.

قوله - رحمه الله -: «وَأَصْدَقُهُمْ»، وكذلك هم أصدق خلق الله تعالى، نزههم الله عن الكذب، كما يُعلم ذلك من سيرة نبينا ﷺ.

قوله - رحمه الله -: «وَأَبَرُّهُمْ»، البر هو: صدق العمل، والخُلق الحسن الذي ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، إلى آخر الآية، فالأنبياء أبر الخلق.

قوله - رحمه الله -: «وَأَكْمَلُهُمْ أَخْلاقًا وَأَعْمَالاً»، هذا أيضًا صحيح، أن الأنبياء أكمل الخلق في الأخلاق، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، هذا وصف لنبينا ﷺ، وقالت عائشة - رضي الله عنها - لما سئلت عن خلق النبي ﷺ: (ألست تقرأ القرآن فإن خلق نبي الله كان الْقُرآنَ)[1]، يتأدب بآدابه، ويعمل بإرشاداته، فالأنبياء وخاتمهم محمد ﷺ أكمل الخلق أخلاقًا، وأكملهم أعمالاً، أعمالهم صالحة، لا يمكن أنهم يقولون إلا صدقاً، ولا يفعلون إلا صالحاً، كما ذكر الله عن شعيب عليه السلام أنه قال: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨].

ثم يقول - رحمه الله -: «وَأَنَّ اللهَ خَصَّهُمْ بِخَصَائِصَ وَفَضَائِلَ، لاَ يَلْحَقُهُمْ فِيهَا أَحَدٌ»، وتلك الخصائص إما أن تكون هي المعجزات التي ميزهم الله بها، وتدل

---

(١) أخرجه مسلم (٧٤٦)، من حديث سعد بن هشام بن عامر.

على صدقهم، وإما أن تكون هي محاسن الأخلاق الدالة على ما ميزهم الله تعالى به من تلك الخصائص، وهي أخلاق طيبة حسنة، دالة على فضلهم، تلك الفضائل فضائل في الديانة، وفضائل في جميع ما يُمدح به، ومن ذلك اختيارهم في أنساب قومهم، فيختار الله تعالى النبي أن يكون ذا نسب، أي ذا شرف في قومه، فلا يكون من ضعاف الناس، ولا من أراذلهم، بل يكون من أفضلهم نسبًا، وأشرفهم، وكذلك أفضلهم خُلقًا، ودينًا، وعبادة، لا يلحقهم أحد في تلك الفضائل.

كذلك يقول: «وَأَنَّ اللهَ بَرَّأَهُمْ مِنْ كُلِّ خُلُقٍ رَذِيلٍ»، أي: الأخلاق الرذيلة التي يتنزهون عنها، فقد برأ الله رسله منها، فبرأهم من الكذب، ومن الخيانة، ومن السرقة، والغلول، والاعتداء، والظلم، والفساد في الأرض، والمعاصي، فقد عصمهم الله من المعاصي صغيرها وكبيرها، وإذا وقع منهم صغيرة على سبيل الاجتهاد، فإن الله تعالى ينبههم على ذلك، فكل خُلق رذيل دنيء فإن الله برأ رسله منه، وبرأهم عن جميع الأخلاق الرذيلة التي يُذم بها، والتي تقدح في العدالة.

قوله -رحمه الله-: «وَأَنَّهُمْ مَعْصُومُونَ فِيمَا يُبَلِّغُونَ عَنِ اللهِ تَعَالَى»، عصمهم الله تعالى في جميع ما يبلغون، فلا يبلغون عنه إلا ما هو صدق وحق، وهذا من ميزتهم وسيماهم، فكل ما يبلغونه فإنه من الله، فلا يمكن أن يُخطؤوا فيما يبلغونه، ولا أن يقولوا على الله ما لا يفعلون، أو ما لا يجوز، وكذلك أيضًا معصومون في أعمالهم، بحيث إنهم لا يعملون معصية ولا ذنباً ولا مخالفة.

قوله -رحمه الله-: «وَأَنَّهُ لاَ يَسْتَقِرُّ فِي خَبَرِهِمْ وَتَبْلِيغِهِمْ إِلا الْحَقُّ

وَالصَّوَابُ»، أي: ما يخبرون به عن الله تعالى، وما يبلغونه، وما يدعون إليه كله حق وصواب وهدى، ليس فيه أية خطأ، مما يدل على أن الله اختارهم ﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَـٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الدخان: ٣٢].

قوله -رحمه الله-: «وَأَنَّهُ يَجِبُ الإِيمَانُ بِهِمْ، وَبِكُلِّ مَا أُوتُوهُ مِنَ اللهِ، وَمَحَبَّتُهُمْ وَتَعْظِيمُهُمْ»، الإيمان بهم يعني إيمانًا مجملاً، بأن نعتقد بأنهم صادقون، وبأن ما جاؤوا به فإنه حق، وبأن كل ما أتوا به فهو من الله، نصدق به، وكذلك محبتهم وتعظيمهم، الذي هو احترامهم، والاعتراف بفضلهم وبمكانتهم.

قوله -رحمه الله-: «وَأَنَّ هَـذِهِ الأُمُورَ ثَابِتَةٌ لِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى أَكْمَلِ الْوُجُوهِ»، وذلك لأنه خاتم الأنبياء؛ ولأنه أفضلهم، فيجب علينا الإيمان به، ومحبته، وتصديقه وطاعته، والاتباع لما جاء به وما بلغه، وقد دل على ذلك كتاب الله تعالى، وسنة نبيه ﷺ، قال الله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾[التغابن: ٨]، فأمرنا بأن نؤمن بالرسول كما نؤمن بالله، مما يدل على أن الإيمان به ركن من أركان الإيمان بالله، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨]، فجعل ثواب الإيمان به ثوابًا عظيمًا ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ ﴾، أي: أجرين عظيمين من رحمته، وقال الله تعالى: ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، أمر بالإيمان به، وغير ذلك من الآيات التي تدل على وجوب الإيمان بالرسل، وبالأخص نبينا محمد ﷺ، فيجب على أمته أن يؤمنوا به، كذلك طاعته، قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧١]، وقال الله

تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [النساء: ١٣]، والآيات كثيرة في ذلك، وقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، جعل طاعة النبي ﷺ علامة على طاعة ربه، فدل ذلك على أنه لابد من طاعته، وقال ﷺ: **(كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلا مَنْ أَبَى)**، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ يَأْبَى؟، قَالَ: **(مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى)**(١)، وكذلك أيضًا محبته قال ﷺ: **(لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ، وَوَالِدِهِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)**(٢)، وغير ذلك من الأدلة.

قوله -رحمه الله-: «وَأَنَّهُ يَجِبُ مَعْرِفَةُ جَمِيعِ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الشَّرْعِ جُمْلَةً وَتَفْصِيلاً، وَالإِيمَانُ بِذَلِكَ، وَالْتِزَامُ طَاعَتِهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، بِتَصْدِيقِ خَبَرِهِ، وَامْتِثَالِ أَمْرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَهْيِهِ»، فمن خصائص نبينا ﷺ أنه يجب علينا معرفة جميع ما جاء به من الشرع جملة وتفصيلاً، وإذا عرفناه نعمل به، أي: لابد أن نتعلمه أولاً، ثم نطبقه ونعمل به، ونؤمن بذلك كله، ونلتزم طاعته في كل شيء، ونصدق خبره، ونمتثل أمره، ونجتنب نهيه، فإذا كانت طاعته من طاعة الله تعالى، فلابد أن نكون كذلك، فلابد أننا نتبع ما جاء به، وجميع ما جاء به نتعلمه، ثم نعمل به، ثم نلتزم بطاعته ﷺ، في كل ما أخبر به، فنصدقه في جميع الأخبار، ونلتزم الطاعة بالامتثال، فنمتثل أمره، ونجتنب نهيه.

قوله -رحمه الله-: «وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ خَاتِمُ النَّبِيِّينَ»، نعتقد بأنه خاتم النبيين لا نبي بعده، فهو آخرهم، ونعتقد أن «قَدْ نَسَخَتْ شَرِيعَتُهُ جَمِيعَ الشَّرَائِعِ»،

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٤٤) من حديث أنس رضي الله عنه.

السابقة حتى قال ﷺ: (لَوْ أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلاَّ أَنْ يَتْبَعنِي)[١]، وقال ابن عباس -رضي الله عنهما- في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: ٨١]، : «ما بعث الله نبيًا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق، لئن بعث الله محمدًا وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته، لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه»[٢]، فشريعة محمد ﷺ نسخت جميع الشرائع التي قبلها.

وكذلك نؤمن بأن (شَرِيعَتَهُ بَاقِيَةٌ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ)، لا يمكن أن تتغير، وأنها صالحة لكل زمان ومكان، ومن بلغته الشريعة يجب عليه الاتباع لها، كما في قوله تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، أي: وأنذر من بلغه، فمن بلغته هذه الشريعة وجب عليه أن يؤمن بها.

قوله -رحمه الله-: «فَلا نَبِيَّ بَعْدَهُ»، ثبت ذلك عن النبي ﷺ أنه قال: (وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لا نَبِيَّ بَعْدِي)[٣]، كل من ادعى النبوة بعده فإنه كاذب.

قوله-رحمه الله-: «وَلاَ شَرِيعَةَ غَيْر شَرِيعَتِهِ فِي أُصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ»، بل شريعته خاتمة الشرائع، ودينه خاتم الأديان، ليس بعد شريعته ما ينسخها،

---

(١) أخرجه أحمد (٣/٣٨٧)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٥/٣١٢) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) تفسير ابن كثير (١/٣٧٩).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٢٥٢)، والترمذي (٢٢١٩)، وأحمد (٥/٢٧٨) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

هكذا يكون ذلك في الأصول والفروع، الأصول هي العقائد، بمعنى أنه جاء بالأصول التي هي أركان الإيمان: الإيمان بالله تعالى، وبملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره [1]، والإيمان بالبعث بعد الموت، وما أشبه ذلك، هكذا يكون الإيمان بالأصول، وأما الفروع فالشرائع التي قبله فيها فروع، وجاءتنا شريعتنا بفروع ناسخة لفروع الأديان التي قبله.

(١) كما في حديث عمر بن الخطاب ﷺ الذي أخرجه مسلم (٨).

وَيَدْخُلُ فِي الإِيمَانِ بِالرُّسُلِ: الإِيمَانِ بِالْكُتُبِ، فَالإِيمَانُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ يَقْتَضِي الإِيمَانَ بِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَلْفَاظِهَا وَمَعَانِيهَا.

فَلا يَتِمُّ الإِيمَانُ بِهِ إِلاَّ بِذَلِكَ، وَكُلُّ مَنْ كَانَ أَعْظَمَ عِلْمًا بِذَلِكَ وَتَصْدِيقًا وَاعْتِرَافًا وَعَمَلاً، كَانَ أَكْمَلَ إِيمَانًا.

الشرح:

ثم يقول- رحمه الله-: «وَيَدْخُلُ فِي الإِيمَانِ بِالرُّسُلِ: الإِيمَانِ بِالْكُتُبِ، فَالإِيمَانُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ يَقْتَضِي الإِيمَانَ بِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَلْفَاظِهَا وَمَعَانِيهَا»، قد جعل النبي ﷺ الإيمان بالكتب ركناً من أركان الإيمان[1]، وذكره الله تعالى في آيات مثل قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وكذلك أيضًا توعد الذين يكفرون به، فقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦]، وذكر الإيمان بذلك عن الأنبياء وأتباعهم بقوله: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فالإيمان بمحمد ﷺ يقتضي الإيمان بكل ما جاء به من الكتاب والسنة ألفاظها ومعانيها، الكتاب الذي هو هذا القرآن، والسنة النبوية التي بلغها، فيجب الإيمان بها بألفاظها ومعانيها.

قوله -رحمه الله-: «فَلا يَتِمُّ الإِيمَانُ بِهِ إِلاَّ بِذَلِكَ»، فمن آمن بمحمد ﷺ وجب عليه أن يتقبل ما جاء به من السنة، وأن يصدقها وأن يعمل بها، فقد قال

---

(١) كما في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي أخرجه مسلم (٨).

ﷺ: «إلا أني أوتيت القرآن ومثله معه»(١)، يعني: السنة، وسماها الله تعالى الحكمة في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤]، التي هي السنة، وقال الله تعالى: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]، فيجب الإيمان بالسنة جملة وتفصيلاً، وكذلك تَعدُّ فرعًا من فروع القرآن، والقرآن الكريم الذي أنزله الله أمرنا أن نؤمن به، وأن نتقبله، وأن نصدق بكل ما فيه، وجعله الله بيانًا قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، وجعله أيضًا هدى وشفاء، فسماه هدى؛ لأنه يهدي به من يشاء، فيجب أن نؤمن به، وأن نتبعه، «فَلا يَتِمُّ الإِيمَانُ بِهِ إِلاَّ بِذَلِكَ»، أي: بالإيمان بالرسل، والإيمان بالكتب جملة وتفصيلاً، والإيمان بمحمد ﷺ، والإيمان بما جاء به من الكتاب والسنة، فلا يتم الإيمان بمحمد ﷺ إلا بذلك كله، وبكل ما جاء به.

يقول الشيخ -رحمه الله-: «وَكُلُّ مَنْ كَانَ أَعْظَمَ عِلْمًا بِذَلِكَ وَتَصْدِيقًا وَاعْتِرَافًا وَعَمَلاً، كَانَ أَكْمَلَ إِيمَانًا»، متى كان العبد مؤمناً بذلك كله، وكان معظمًا لذلك فإنه يكون أكمل إيمانًا من غيره.

(١) أخرجه أحمد (٤/١٣٠)، والطبراني في مسند الشاميين (٢/١٣٧)، من حديث المقدام بن معد يكرب.

وَالإِيمَانُ بِالْمَلاَئِكَةِ وَالْقَدَرِ دَاخِلٌ فِي هَذَا الأَصْلِ الْعَظِيمِ.

وَمِنْ تَمَامِ الإِيمَانِ بِهِ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ حَقٌّ، وَلاَ يُمْكِنُ أَنْ يَقُومَ دَلِيلٌ عَقْلِيٌّ أَوْ حِسِّيٌّ عَلَى خِلافِهِ.

كَمَا لاَ يَقُومُ دَلِيلٌ نَقْلِيٌّ عَلَى خِلافِهِ، فَالأُمُورُ الْعَقْلِيَّةُ أَوِ الْحِسِّيَّةُ النَّافِعَةُ، تَجِدُ دلالةَ الْكِتَابِ والسُّنَّةِ مُثْبِتَةً لَهَا، حَاثَّةً عَلَى تَعَلُّمِهَا وَعَمَلِهَا.

وَغَيْرُ النَّافِعِ مِنَ الْمَذْكُورَاتِ لَيْسَ فِيهَا مَا يَنْفِي وُجُودَهَا، وَإِنْ كَانَ الدَّلِيلُ الشَّرْعِيُّ يَنْهَى وَيَذُمُّ الأُمُورَ الضَّارَّةِ مِنْهَا، وَيَدْخُلُ الإِيمَانِ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ بَلْ وَسَائِرِ الرُّسُلِ.

الشرح:

قوله -رحمه الله-: «وَالإِيمَانُ بِالْمَلاَئِكَةِ»، جعل النبي الإيمان بالملائكة من أركان الإيمان لما قال: **(أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ)**[1]، فالإيمان بالملائكة ركن من أركان الإيمان الستة؛ وذلك لأن الله تعالى أخبر عن الملائكة في القرآن ومدحهم في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩ - ٢٠]، وصف لهم بالعبادة، وفي قوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ - ٢٧]، وصف لهم بالطاعة، وفي قوله: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، وغير ذلك من الآيات.

---

(١) جزء من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي أخرجه مسلم (٨).

وكذلك في قول النبي ﷺ: **(أَطَّتْ السَّمَاءُ، وَحُقَّ لها أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلاَّ وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ)**[١]، وفي رواية: **(ما في السموات السَّبْعِ مَوْضِعُ قَدَمٍ وَلا شِبْرٍ وَلا كَفٌّ إِلا وَفِيهِ مَلَكٌ قَائِمٌ، أو مَلَكٌ رَاكِعٌ أو مَلَكٌ سَاجِدٌ)**[٢]، ولما أخبر بكلام الله في قوله –عليه الصلاة والسلام–: **(إذا أراد الله أن يوحي بالأمر، تكلم بالوحي، أخذت السموات منه رجفة – أو قال: رعدة – شديدة خوفاً من الله، فإذا سمع بذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجداً، فيكون أول من يرفع رأسه جبرائيل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد)**[٣]، فهذه حالة الملائكة.

وقد ورد تفاصيل في الملائكة:

فمنهم: ملك الوحي جبريل عليه السلام، الذي ينزل بالوحي على الأنبياء.

ومنهم: ميكائيل عليه السلام، وهو الموكل بالقطر.

ومنهم: إسرافيل، وهو الموكل بالنفخ في الصور، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: **(كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ، وَحَنَى جَبْهَتَهُ، يَسَّمَّعُ مَتَى يُؤْمَرُ فَيَنْفُخُ)**[٤].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣١٢)، وابن ماجه (٤١٩٠)، وأحمد (٥/١٧٣)، والحاكم (٢/٥٥٤) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) الطبراني في الكبير (١٧٥١) من حديث جابر رضي الله عنه. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٣٥٨) رواه الطبراني في الأوسط، وفيه عروة بن مروان. قال الدارقطني ليس بقوي في الحديث، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٤٣١) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، وأحمد واللفظ له (١/٣٢٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

ومنهم: ملك الموت، قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١].

ومنهم: ملائكة قبض الأرواح، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١] دليل على أن هذا وصف الملائكة.

قوله -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: «وَالْقَدَرِ دَاخِلٌ فِي هَذَا الأَصْلِ الْعَظِيمِ»، كذلك الإيمان بالقدر داخل في هذا الأصل، القدر: قدرة الله، كما قال ذلك الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]، فالإيمان بالقدر داخل في هذا الأصل العظيم، الذي هو الإيمان بنبوة جميع الأنبياء عمومًا، وبنبوة محمد ﷺ خصوصًا، فتفاصيله معروفة، قد ذكر شيخ الإسلام[2] أن الإيمان بالقدر على درجتين، كل درجة تتضمن شيئين:

الدرجة الأولى: الإيمان بالعلم، ثم بالكتابة.

الدرجة الثانية: الإيمان بالإرادة، ثم بالخلق.

والله تعالى علم ما الخلق عاملون قبل أن يخلقهم، ثم خلق القلم وأمره أن يكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، وكذلك أيضًا أراد جميع ما في الكون، وخلقه، ولا يكون في الوجود إلا ما يريد.

قوله -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: «وَمِنْ تَمَامِ الإِيمَانِ بِهِ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ حَقٌّ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَقُومَ دَلِيلٌ عَقْلِيٌّ أَوْ حِسِّيٌّ عَلَى خِلَافِهِ»، من تمام الإيمان بالنبي ﷺ أن نؤمن بأن شريعته كلها حق، وما جاء إلا بما هو حق وصدق، جميع ما بلغه

---

(١) نقله عنه ابن القيم في شفاء العليل (١/ ٢٨)، وانظر: منهاج السنة النبوية (٣/ ٢٥٤).

(٢) العقيدة الواسطية (ص٣٥).

من الأخبار عن الأمم السابقة، وجميع ما بلغه من الأحكام والأوامر والنواهي، وجميع ما أخبر به من الآداب، وجميع ما بلغه أيضًا من الوعد والوعيد، والثواب والعقاب، كل ما جاء به فهو حق، لا يمكن أن يقوم دليل على خلافه، سواء كان ذلك الدليل عقليًا أو حسيًا، فعرفنا بذلك أنه يجب الإيمان بكل ما بلغه النبي ﷺ، وأن ما جاء به حق، وأنه لا يوجد دليل يخالفه، والأدلة:

إما أدلة عقلية، وهي ما يفكر بها أهل العقول، ولا يوجد دليل عقلي يخالفه.

وإما أدلة حسية، وهي المشاهدة في الوجود، ولا يوجد دليل حسي يخالف ما جاء به نبينا ﷺ.

وإما أدلة نقلية، وهي المنقولة عنه وعن غيره من الأنبياء.

قوله: «الأُمُورُ الْعَقْلِيَّةُ»، أي: التي يشهد بها العقل، «أَوِ الْحِسِّيَّةُ النَّافِعَةُ»، الأمور الحسية التي هي محسوسة ظاهرة نافعة، «تَجِدُ دلالةَ الْكِتَابِ والسُّنَّةِ مُثْبِتَةً لَهَا»، فتجتمع الأدلة العقلية، والأدلة الحسية، مع الأدلة النقلية، وتكون «حَاثَّةً عَلَى تَعَلُّمِهَا وَعَمَلِهَا»، أي: تعلم الشريعة، والعمل بها، هكذا تكون طريقة أهل السنة في العمل بما جاءت به هذه الشريعة.

يقول- رَحِمَهُ اللَّهُ-: «وَغَيْرُ النَّافِعِ مِنَ الْمَذْكُورَاتِ لَيْسَ فِيهَا مَا يَنْفِي وُجُودَهَا، وَإِنْ كَانَ الدَّلِيلُ الشَّرْعِيُّ يَنْهَى وَيَذُمُّ الأُمُورَ الضَّارَّةِ مِنْهَا»، فغير النافع ليس فيها ما ينفي وجودها، يعني: الأشياء المذكورة ليس فيها ما ينفي وجودها، الأشياء الضارة التي ليست نافعة، وإن كان الدليل الشرعي ينهى ويذم الأمور الضارة منها، الأدلة الشرعية يعني: المنقولة النقلية تنهى عن الأشياء الضارة منها،

ولكن ليس هناك ما ينفي وجودها. فهناك أشياء ضارة في الكون، يعني الأمراض، والتقادير، والكثير من الأفعال، وما أشبهها، التي فيها شيء من الضرر أو من المشقة، الحوادث، والمصائب، والأمراض، والعاهات، موجودة في القدر، والله تعالى هو الذي قدرها، وهو الذي خلقها، ولا يلزم أن يكون كل ما في الوجود نافعًا، فالله الذي قدر الخير والشر، وغير النافع موجود في الكون، واقع فيما يؤمن به العباد من القدر، مع أن الأدلة الشرعية تذم الأمور الضارة، سواء كانت ضارة للأبدان أو ضارة في الأديان، لقول الله تعالى: ﴿تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾[البقرة: ١٨٨]، هذه من الأدلة الشرعية، التي تنهى عن الأشياء الضارة وتذم من يفعلها.

يقول -رَحِمَهُ اللَّهُ-: «وَيَدْخُلُ الإِيمَانِ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ»، الإيمان بما في الكون، أي: بجميع ما يحدث في الكون ضارة أو نافعة، ولذلك قال النبي ﷺ: **(احْرِصْ على ما يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ ولا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فلا تَقُلْ: لو أني فَعَلْتُ كان كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وما شَاءَ فَعَلَ)**[1]، فالإنسان يتوقى الشرور، وإذا وقع به حادث، أو مرض، أو إصابة، أو عيب، أو كسر، أو ولد له مولود ناقص الخلقة، أو ناقص العقل، أو نحو ذلك، فإن الأصل أنه يرضى بذلك، ويعلم أن هذا من قدر الله تعالى، ولكنه قبل ذلك يتجنب الأسباب التي فيها الهلاك، فوجود هذه الأشياء التي فيها ضرر داخل

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

في الإيمان بما جاء به النبي ﷺ، وداخل أيضًا بما جاءت به الرسل؛ ولهذا قال: «بَلْ وَسَائِرِ الرُّسُلِ».

الأَصْلُ الثَّالِثُ

الإِيمَانُ بِالْيَوْمِ الآخِرِ

فَكُلُّ مَا جَاءَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ مِمَّا يَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ، فَإِنَّهُ مِنَ الإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الآخِرِ، كَأَحْوَالِ الْبَرْزَخِ، وَأَحْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْحِسَابِ، وَالثَّوابِ، والْعِقَابِ، والشَّفَاعَةِ، والْمِيزَانِ، والصُّحُفِ الْمَأْخُوذَةِ بِالْيَمِينِ وَالشِّمَالِ، والصِّرَاطِ، وَأَحْوَالِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَأَحْوَالِ أَهْلِهَا، وَأَنْوَاعِ مَا أَعَدَّ الله فِيهِمَا لأَهْلِهِمَا إِجْمَالاً وَتَفْصِيلاً، فَكُلُّ ذَلِكَ دَاخِلٌ فِي الإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الآخِرِ.

الشرح:

قال -رحمه الله-: «الأَصْلُ الثَّالِثُ: الإِيمَانُ بِالْيَوْمِ الآخِرِ»، الذي هو يوم القيامة، والبعث بعد الموت وهو أهم ما ينكره الكفار، فهو من الأشياء التي ينكرونها وجاء الشرع بتقريرها، وذلك لأنهم ينكرون البعث بعد الموت، فينكرون الحياة الأخروية؛ فلأجل ذلك جاءت أدلة كثيرة في الكتاب والسنة مقررة اليوم الآخر، والبعث بعد الموت، ويذكر النبي ﷺ اليوم الآخر مع الإيمان بالله، كقوله: (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَه)[1]، (من كان يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فلا يُؤْذِي جَارَهُ)[2]، (وَمَنْ كان يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كان يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠١٩) من حديث أبي شريح العدوي، ومسلم (٤٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٥١٨٥)، ومسلم (٤٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أو لِيَسْكُتْ)[١]، فاقتصر على ركنين: الإيمان بالله واليوم الآخر، وكذلك قوله ﷺ: (لا يَحِلُّ لامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ تُحِدَّ على مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلاثٍ إلا على زَوْجٍ)[٢]، اقتصر على الإيمان باليوم الآخر بعد الإيمان بالله.

قوله -رحمه الله-: «فَكُلُّ مَا جَاءَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ مِمَّا يَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ»، أولاً: ملك الموت الذي يقبض الأرواح، قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١]، كذلك أيضًا الملائكة الذين يأتون لقبض الروح، ففي حديث البراء بن عازب الصحيح قوله ﷺ: (إن الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي إِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ وَانْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا تَنَزَّلَتْ إليه الْمَلائِكَةُ كَأَنَّ على وُجُوهِهِمُ الشَّمْسَ مع كل وَاحِدٍ كَفَنٌ وَحَنُوطٌ فَجَلَسُوا منه مَدَّ الْبَصَرِ)[٣] إلى آخر الحديث، هؤلاء أعوان ملك الموت، بمعنى أنهم يقبضون الروح، فالبدن يجهزه أهل الدنيا، يغسلونه بعدما يكفنونه ويحنطونه، وأما الروح فإنها يقبضها الملائكة، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]، وغير ذلك من الأدلة، وكذلك أيضًا ما جاء في عذاب القبر ونعيمه، فقد جاءت أدلة كثيرة من السنة، وأشير إليها أيضًا في القرآن، وتكلم عليها العلماء، وقد أورد ابن القيم رحمه الله في كتاب (الروح) سؤالاً أورده على نفسه: لماذا لم يُذكر عذاب القبر في القرآن؟ فأجاب بجوابين: جواب مجمل، وجواب مفصل، قال في الجواب المجمل: «أما المجمل فهو أن الله -سبحانه وتعالى- أنزل على رسوله وحيين،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (١٢٨٠)، ومسلم (١٤٨٦) من حديث أم حبيبة رضي الله عنها.

(٣) أحمد (٢٩٥/٤)، والحاكم (٩٤/١)، وابن أبي شيبة (٥٤/٣).

وأوجب على عباده الإيمان بهما، والعمل بما فيهما وهما: الكتاب والحكمة... والكتاب هو القرآن، والحكمة هي السنة باتفاق السلف، وما أخبر به الرسول ﷺ عن الله فهو مما يجب تصديقه، والإيمان به، وهو مما أخبر به الرب تعالى على لسان رسوله، هذا أصل متفق عليه بين أهل الإسلام، لا ينكره إلا من ليس منهم، وقد قال النبي ﷺ «**(إلا أني أوتيت القرآن ومثله معه)**[1]»[2]. ثم قال: «وأما الجواب المفصل فهو: أن نعيم البرزخ وعذابه مذكور في القرآن في غير موضع»، ثم ذكر آيات يُستنبط منها عذاب القبر، منها قوله تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: ١٠١]، قال: مرتين: مرة في الدنيا بالعقاب بالمصائب الدنيوية، ومرة في البرزخ بعذاب القبر، ففيها إثبات عذاب القبر، ومنها قوله تعالى في سورة (السجدة) لما ذكر حال الفاسقين: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١]، وفُسر العذاب الأدنى بأنه عذاب القبر، وأورد آيات نحوها.

وأما السنة فإنها متواترة بعذاب القبر ونعيمه، ويؤمن أهل السنة بذلك، ولكن يعرفون أن العذاب والنعيم إنما هو على الأرواح، أما الأجساد فإنها تفنى، فالأرواح هي التي تتعذب، وذكر ابن القيم أن الروح لها خمسة أنواع من التعلق بالبدن:

الأول: تعلقها به وهو في الرحم؛ ولذلك يتحرك وهو في رحم أمه، مما يدل على أن الروح متصلة به.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الروح (١/٧٥).

الثاني: تعلقها به بعد خروجه من الدنيا وهو تعلق كامل، بحيث إن الروح هي التي تحرك به.

الثالث: تعلقها به في النوم، فإنها لم تفارقه؛ فلأجل ذلك يتقلب وهو نائم، ويرى أحلامًا.

الرابع: تعلقها به وهو في البرزخ بعد الخروج من الدنيا في القبر ونحوه.

الخامس: تعلقها به بعد البعث.

ويقول: «إن الأحكام في الدنيا على الأبدان، والأرواح تبع لها، أما في البرزخ فالأحكام على الأرواح، والأبدان تبع لها، وأما في الآخرة فالأحكام عليهما على الروح والبدن»(١).

فالحاصل: أننا نؤمن بما بعد الموت، مما أخبر به النبي ﷺ، كل هذا داخل في الإيمان باليوم الآخر، وإذا عرفنا أنه ركن من أركان الإيمان فنؤمن بأحوال البرزخ، والبرزخ هو: ما بعد الموت وقبل البعث، والأصل في البرزخ أنه الحاجز بين الشيئين، كما في قوله تعالى: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ٢٠]، أي: حاجز لا يبغي المالح على الحالي، فكذلك هذه الدنيا والدار الآخرة بينهما برزخ ألا وهو ما بعد الموت وقبل البعث، أحوال البرزخ: عذاب القبر ونعيمة، (**الْقَبْرُ رَوْضَةٌ من رِيَاضِ الْجَنَّةِ أو حُفْرَةٌ من حُفَرِ النَّارِ**)(٢)، هكذا جاء في الأحاديث، وكذلك أن القبر يوسع على المؤمن، ويضيق على الكافر حتى تختلف أضلاعه، وأنه يفتح له باب إلى الجنة وباب إلى النار وما أشبه ذلك.

قوله -رحمه الله-: «وَأَحْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، يدخل في الإيمان باليوم الآخر أحوال يوم القيامة، الموقف يوم القيامة، ويدخل فيه:

---

(١) انظر: الروح (١/ ٦٣ وما بعدها)

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٦٠)، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

أولاً: حشر الناس بعد البعث، قال ﷺ **(يُحْشَرُ الناس يوم الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً)**[(١)].

ثانيًا: جمعهم على هذه الأرض، مع كثرتهم، يمد الله هذه الأرض وتتسع لهم، لقول الله تعالى: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٦ - ١٠٧].

ثالثًا: الحساب، قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨]، هذا في حالة المؤمن، والكافر يقول: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥- ٢٦] والله تعالى سريع الحساب.

رابعًا: تطاير الصحف باليمين وبالشمال ومن وراء الظهر.

خامسًا: الميزان، قال تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم﴾ [الأعراف: ٨ - ٩]، ذكر الله الوزن في سورة (الأعراف)، وفي سورة (الأنبياء)، وفي سورة (المؤمنون)، وفي سورة (القارعة).

سادسًا: ومما يكون أيضًا في الآخرة: الصراط، والحوض، وحشر الناس وطلبهم الشفاعة، وطول ذلك اليوم عليهم، وكثرة العرق لهم، وعدم طول اليوم على المؤمنين ونحو ذلك.

قوله -رحمه الله-: «وَمَا فِيهَا مِنَ الْحِسَابِ»، أي: نؤمن بالحساب، حساب الخلق، وأنه يحاسبهم في لحظات.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٥٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

قوله -رحمه الله-: «وَالثَّوابِ»، أي: نؤمن بالثواب الذي وعد الله به الأولياء والصالحين من المؤمنين.

قوله -رحمه الله-: «والْعِقَابِ»، أي: ونؤمن بالعقاب الذي هو عقوبة الكافرين، هؤلاء ثوابهم الجنة، وهؤلاء عقابهم النار.

قوله -رحمه الله-: «والشَّفَاعَةِ»، أي: ونؤمن بالشفاعة، شفاعة الشافعين ومنهم نبينا ﷺ، وأنواع الشفاعة التي اختص بها النبي ﷺ:

١- الشفاعة العظمى، ليأتي الله تعالى لفصل القضاء.

٢- الشفاعة لأهل الجنة أن يدخلوها.

٣- شفاعته في عمه أي: أبي طالب أن يخفف عنه العذاب.

وأما الشفاعة العامة له ﷺ ولجميع المؤمنين فهي أنواع:

١- الشفاعة لبعض أهل الجنة أن تُرفع رتبهم.

٢- الشفاعة لمن دخل النار من أهل التوحيد أن يخرجوا منها، ونحو ذلك.

٣- الشفاعة فيمن استحق النار أن لا يدخلها.

قوله - رحمه الله -: **(والْمِيزَانِ)**، أي: ونؤمن أيضًا بالميزان، وأنه تُوزن فيها الأعمال، فتخف إذا كانت أعمالاً سيئة، وتثقل إذا كانت أعمالاً صالحة، وقيل: إن الذي يُوزن هو الإنسان، فيخف إذا كان فاسقًا، ويثقل إذا كان صالحًا.

وقيل: إن الذي يُوزن هي الصحف، التي تُكتب فيها الأعمال، فتثقل إذا كانت أعمالاً صالحة، وتخف إذا كانت سيئة.

وقيل: إن الذي يُوزن نفس الأعمال يجسدها الله تعالى.

قولـه -رحمه الله-: «والصُّحُفِ المَأْخُوذَةِ بِاليَمِينِ وَالشِّمَالِ»، أي: ونؤمن بالصحف التي يأخذها باليمين أو بالشمال، هذا من جملة ما يكون في اليوم الآخر.

وقد سمعت بعض المشايخ يقول في قوله: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الإسراء: ٧١]، أنه يُكتب فيه: هذا كتاب من الله لفلان بن فلان، أدخلوه جنة عالية، قطوفها دانية؛ فلذلك يقول: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ۝١٩ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩- ٢٠]، هذا كتاب أصحاب اليمين.

ذكر الله عن الأشقياء في سورة (الحاقة): ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾[الحاقة: ٢٥]، وفي سورة (الانشقاق): ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ [الانشقاق: ١٠]، قيل: إن شماله تُغل وراء ظهره فيأخذ كتابه، فيكون الكتاب وراء ظهره، وفي يده الشمال.

لاشك أيضًا أنه يُعرض عليهم كتبهم التي فيها أعمالهم، قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩]، فدل على أن أعمالهم كلها يقرؤونها في هذا الكتاب الكبير، الذي يُحصي أعمالهم، وكذلك قال تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣ - ١٤].

قوله -رحمه الله-: «والصِّرَاطِ»، مما يكون في الآخرة الصراط، قيل: إنه يُنصب على متن جهنم، وأنه أدق من الشعرة، وأحد من السيف، وأن الناس يمشون عليه بأعمالهم، فمنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كأجاود الخيل والركاب، ومنهم من يعدو عدوًا، ومنهم من يمشي مشيًا، ومنهم من يزحف زحفًا، وجاءت أحاديث كثيرة في صفة الصراط منها ما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(يُضْرَبُ الجِسْرُ على جَهَنَّمَ وَتَحِلُّ الشَّفَاعَةُ وَيَقُولُونَ اللهم سَلِّم سَلِّمْ)**، قِيلَ: يا رَسُولَ اللهِ

وما الْجِسْرُ؟ قال: (دَحْضٌ مَزِلَّةٌ فيه خَطَاطِيفُ وكَلالِيبُ وَحَسَكٌ تَكُونُ بِنَجْدٍ فيها شُوَيْكَةٌ يُقَالُ لها السَّعْدَانُ، فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرْفِ الْعَيْنِ، وكَالْبَرْقِ، وَكَالرِّيحِ، وَكَالطَّيْرِ، وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ، والرِّكَابِ، فَنَاجٍ مُسلَّمٌ، وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّم)[1].

قوله -رَحِمَهُ اللَّهُ-: «وَأَحْوَالِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ»، أي: نؤمن أن هؤلاء يدخلون الجنة، وينعمون فيها أبد الآبدين، ولا ينتقلون عنها، وهؤلاء كذلك في النار.

قوله -رَحِمَهُ اللَّهُ-: «وَأَحْوَالِ أَهْلِهَا»، أي: نؤمن بأحوال أهل الجنة، وأحوال أهل النار، وما ورد في السنة من تفاصيل الأحوال.

قوله -رَحِمَهُ اللَّهُ-: «وَأَنْوَاعِ مَا أَعَدَّ الله فِيهِمَا لأَهْلِهِمَا إِجْمَالاً وَتَفْصِيلاً»، من الحور، والسرر، والأرائك، وما ذُكر في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ۝ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ [الغاشية: ٨-١٢]، إلى آخر ذلك، ما ذُكر في الجنة من النعيم، وما ذُكر أيضًا في النار من الجحيم، في مثل قوله تعالى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۝ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ [ص: ٥٧ - ٥٨]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩].

قوله -رَحِمَهُ اللَّهُ-: «فَكُلُّ ذَلِكَ دَاخِلٌ فِي الإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الآخِرِ».

فالحاصل أن الإيمان بذلك كله إجمالاً وتفصيلاً داخل في الإيمان اليوم الآخر، من آمن بذلك وقال نصدق بجميع ما سمعنا وما بلغه نبينا صدق عليه أنه من المؤمنين، ومن كذب بذلك فإنه من المكذبين.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
وجاء في آخر رواية مسلم: (قال أبو سَعِيدٍ بَلَغَنِي أَنَّ الجِسْرَ أَدَقُّ من الشَّعْرَةِ وأَحَدُّ من السَّيْفِ).

الأَصْلُ الرَّابِعُ

مَسْأَلَةُ الإِيمَانِ

فَأَهْلُ السُّنَّةِ يَعْتَقِدُونَ مَا جَاءَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، مِنْ أَنَّ الإِيمَانَ هُوَ: تَصْدِيقُ الْقَلْبِ الْمُتَضَمِّنُ لأَعْمَالِ الْجَوَارِحِ.

فَيَقُولُونَ: الإِيمَانُ اعْتِقَادَاتُ الْقُلُوبِ، وَأَعْمَالُهَا، وَأَعْمَالُ الْجَوَارِحِ، وأَقْوَالُ اللِّسَانِ، وَأَنَّهَا كُلُّهَا مِنَ الإِيمَانِ.

وَأَنَّ مَنْ أَكْمَلَهَا ظَاهِرًا وبَاطِنًا؛ فَقَدْ أَكْمَلَ الإِيمَانَ، وَمَنِ انْتَقَصَ شَيْئًا مِنْهَا؛ فَقَدْ انْتَقَصَ مِنْ إِيمَانِهِ، وَهَـذِهِ الأُمُورُ: بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، أَعْلاهَا قَوْلُ: لا إِلَهَ إِلا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، والْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ.

الشرح:

مسألة الإيمان، وزيادته، ونقصانه، ودخول الأعمال فيه، الخلاف فيها مع المرجئة، والمرجئة: يدعون أنهم من أهل السنة ومن أتباع الأئمة، ومع ذلك فإنهم فتحوا بابًا كبيرًا على المسلمين، حيث إنهم سهلوا في أمر المعاصي، وفي أمر المحرمات، وقالوا: إن المعاصي ولو كانت من الكبائر لا تضر، ولا تنقص الإيمان، وأن من عمل بها فإيمانه كامل، فعندهم أفسق الناس من الذين يتسمى بأنه مسلم، كامل الإيمان، وإيمانه كإيمان الأنبياء والرسل؛ لأنهم يعتقدون أن الإيمان مجرد التصديق والاعتقاد، ولا يجعلون الأعمال من الإيمان، ويسمون (مرجئة الفقهاء)، فلما نقلوا عن أبي حنيفة -رحمه الله- أنه قال: «الإيمان هو التصديق»، تمسكوا بهذه الكلمة، وساروا عليها، وأخرجوا الأعمال عن مسمى الإيمان، وتمسكوا بأن الإيمان باق على مسماه في اللغة.

ولاشك أن الإيمان في اللغة هو التصديق، كما قال إخوة يوسف عليه السلام: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾[يوسف: ١٧]، أي: بمصدق لنا، ولكن الشرع أدخل عليه زيادات، وأدخل عليه اصطلاحًا، كسائر المسميات الشرعية، ومعلوم أن الشرع سمى كثيرًا من العبادات ونحوها بأسماء خاصة، ما كانت العرب تعرفها، فالوضوء عندهم هو الإضاءة ونحوها، ولكن الآن له مسمى شرعي، والصلاة عندهم الدعاء، وأصبحت مسمى شرعيًا، والزكاة عندهم التطهير، وأصبحت مسمى شرعيًا، وكذلك الصيام عندهم مجرد الإمساك، وأصبح مسمى شرعيًا، وكذا يُقال في الحج والعمرة، وكذا أيضًا يُقال في الإحسان والإيمان والإسلام، أنها كلها مسميات شرعية، فبدل ما كان الإسلام هو الإذعان، أصبح مسمى شرعيًا، وكذلك الإحسان مسمى شرعيًا، وأضدادها أيضًا، فالكفر مسمى شرعي، وإلا فأهل اللغة يُطلقونه على الجحد، وعلى الإنكار، وعلى الستر، والشرك مسمى شرعي، ما كان العرب يعرفونه بهذا المعنى، والنفاق مسمى شرعي، فعُرف بذلك أن هذه المسميات لها مسمى شرعي، ومسمى لغوي، ونحن نعمل بالمسمى الشرعي، الذي جاء به الرسول ﷺ، وغير بعض الكلمات، وجعل لها مسمًى شرعيًا، فهذا هو السبب في أنهم أطالوا على مسألة الإيمان، وتوسعوا فيه، وكتب فيه شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- ثلاثة مؤلفات، كتاب (الإيمان) الكبير، وكتاب (الإيمان) المتوسط، وكتاب (الإيمان) الصغير، إلا أن الصغير قد قالوا: ليس من وضع شيخ الإسلام، وإنما أحد تلاميذه، اختصر كتاب الإيمان اختصارًا مخلاً، وكذلك غيره، كتب فيه أبو عبيد القاسم ابن سلام كتاب (الإيمان)، وكذلك ابن أبي

شيبة له رسالة سماها (الإيمان)، فاهتموا بهذا الإيمان؛ وذلك لأنهم ابتلوا بهؤلاء الذين يدعون أنهم على صواب، وأنهم تمسكوا بما هو حق في نظرهم، ولكنهم فتحوا الأبواب على مصراعيها حتى أدخلوا الفسقة ونحوهم في كاملي الإيمان، ولسان حالهم يرددون قول أحدهم:

فكثر ما استطعت من الخطايا إذا كان القدوم على كريم

وقول الآخر:

تكثر ما استطعت من الخطايا فإنك بالغ رباً غفورا

ستبصر إن وردت عليه عفواً وتلقى سيداً ملكاً كبيرا

تعض ندامة كفيك مما تركت مخافة النار السرورا

هذا هو السبب في توسع أهل السنة فيما يتعلق بالإيمان.

يقول الشيخ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: «فَأَهْلُ السُّنَّةِ يَعْتَقِدُونَ مَا جَاءَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ»، أي: كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، «مِنْ أَنَّ الإِيمَانَ هُوَ: تَصْدِيقُ الْقَلْبِ الْمُتَضَمِّنُ لأَعْمَالِ الْجَوَارِحِ»، يعني: أن التصديق الذي في القلب يكون قويًا، ويكون من أثره أن الجوارح تنطلق بالأعمال الصالحة، وتترك الأعمال السيئة، الجوارح: أعضاء الإنسان: اليدان، والرجلان، إذا مشى أحد الناس إلى المسجد، كان مسيره من الإيمان، مسيره عمل صالح يزيد به إيمانه، وكذلك إذا مشى إلى مكان مفضل، حتى لطلب العلم؛ لقول النبي ﷺ: **(مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فيه عِلْمًا سَهَّلَ الله له طَرِيقًا إلى الْجَنَّةِ)**(١)، اليدان تعملان وعملهما من الإيمان إذا كان عملاً صالحًا، فهو يسجد عليهما، ويرفعهما عند الدعاء، ويعد بهما

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه واللفظ له (٢٢٣)، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

الأذكار والتسابيح، ونحو ذلك، فإنهن مسؤولات مستنطقات، لابد أنها تشهد على صاحبها، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]، العينان تنظران ونظرهما قد يكون إيمانًا، وقد يكون مما ينقص الإيمان، وكذلك الأذنان، واللسان، والشفتان، هذه كلها جوارح، ولابد أن الأصل أنه يكون فيها إما عمل صالح، وإما عمل سيئ، فالعمل الصالح يزداد به الإيمان، والعمل السيئ ينقص به الإيمان.

كذلك عُرف بأن الإيمان يكون بالجوارح كلها، يقولون: «الإِيمَانُ اعْتِقَادَاتُ الْقُلُوبِ»، أي: يعتقد كمال صفات الله تعالى، ويعتقد كمال ذاته، ويعتقد صدق وعده ووعيده، وصدق ثوابه وعقابه، يعتقد ذلك كله، هذا الاعتقاد.

قوله -رحمه الله-: «وَأَعْمَالُهَا»، ثم القلب له عمل، وتسمى الأعمال القلبية، المحبة القلبية من الإيمان، وخضوع القلب من الإيمان، وخوف القلب من الله، ورجاء القلب لله، كل هذه أعمال القلب، فتدخل في الإيمان.

قوله -رحمه الله-: «وَأَعْمَالُ الْجَوَارِحِ»، أي: أعمال الجوارح داخلة في مسمى الإيمان، فالجوارح لها أعمال، وقد تكون مما يزيد به الإيمان، أو مما ينقص بها الإيمان، فالمشي إلى المساجد، يزيد به الإيمان، وإلى الملاهي ينقص به الإيمان، والنظر في المصاحف، وكتب العلم للقراءة والاستفادة، يزيد به الإيمان، والنظر إلى الصور، وإلى الأفلام الخليعة، وإلى الكتب الإلحادية، ينقص به الإيمان، السماع للذكر والقرآن والخير، يزيد به الإيمان، والسماع للهو واللعب وللغناء والزمر، ينقص به الإيمان، فالإيمان اعتقادات القلوب، وأعمال القلوب، وأعمال الجوارح، والجوارح: اليدان، والرجلان، والأذنان، والعينان،

واللسان، هذه كلها لها أعمال، إما تكون مما يزيد به الإيمان، أو مما ينقص به الإيمان.

قوله -رَحِمَهُ اللَّهُ-: «وأَقْوَالُ اللِّسَانِ، وَأَنَّهَا كُلُّهَا مِنَ الإِيمَانِ»، يذكر بعضهم أن اللسان أيضًا له عمل، والمشهور أنه ليس له عمل وإنما له قول؛ ولذلك الذي نسمع من مشايخنا وبالأخص الشيخ محمد بن إبراهيم ـ رحمه الله ـ أنه لا يحسب للسان عملاً، فإنه يعرِّف الإيمان بأنه: قول القلب واللسان، وعمل القلب والجوارح، وبعضهم يقول: عمل القلب واللسان والجوارح.

ونقول: اللسان ليس له عمل إلا مجرد الكلام، والكلام يُسمى قولاً، فقول القلب واللسان، وعمل القلب والجوارح.

فالفقهاء يعرفون الإيمان بأنه: قول وعمل واعتقاد، قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان، يزيد بالطاعة، وينقص بالعصيان، وكما أن فعل الطاعات يزيد به الإيمان، فكذلك ترك المعاصي احتسابًا أو طلبًا للأجر، يزيد به الإيمان.

يقول الشيخ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: «وَأَنَّ مَنْ أَكْمَلَهَا ظَاهِرًا وبَاطِنًا؛ فَقَدْ أَكْمَلَ الإِيمَانَ»، يعني: أكمل الاعتقاد الجازم بالقلب، وعمل القلب، وكذلك عمل الجوارح: عمل العينين، وعمل الأذنين، واللسان، والشفتين، وعمل اليدين، والرجلين، والعمل المتعدي للبدن، مثل: محبة الخير للمسلمين، وإرشادهم، ودعوتهم إلى الله، وتعليمهم، ونحو ذلك، كل هذا من الإيمان، وكذلك ترك المعاصي احتسابًا من الإيمان، فمن أكمل هذه الخصال ظاهرًا وباطنًا فقد أكمل الإيمان، «وَمَنِ انْتَقَصَ شَيْئًا مِنْهَا؛ فَقَدْ انْتَقَصَ مِنْ إِيمَانِهِ»، وكل شيء قابل

للزيادة فإنه قابل للنقصان، والله تعالى قد أخبر بأن الإيمان يزيد في قوله عز وجل: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وكذلك في قوله جل وعلا: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [المدثر: ٣١]، وكذلك ذكر الله الزيادة في أواخر سورة (التوبة): ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤]، وكذلك في سورة (الفتح): ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤].

فالحاصل: أن الأعمال الصالحة يزيد بها الإيمان، وأن السيئة ينقص بها الإيمان، من انتقص شيئًا من الأعمال الصالحة انتقص من إيمانه.

قوله -رحمه الله-: «وَهَذِهِ الأُمُورُ: بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، أَعْلاهَا قَوْلُ: لا إِلَهَ إلا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، والْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ»، كما ذُكر في حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي في الصحيحين[1]، **(بضع وسبعون)** أو **(بضع وستون)**، وشعبه: هي خصاله التي يتكون منها مجموعه، ذُكر في الحديث أنها **(بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أو بِضْعٌ وَسِتُّونَ)**، والمراد أظهرها وأشهرها، ولو تُتبعت لزادت، وأوسع من كتب فيها البيهقي كتابه الكبير (شعب الإيمان)، وهناك من اقتصر على خصال الإيمان، ذكر في هذا الحديث ثلاثاً: **(لا إِلَهَ إلا اللهُ)**، **(وإِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ)**، و**(الْحَيَاءُ)**، بالنسبة لـ**(لا إِلَهَ إلا اللهُ)**، فإنها قول باللسان، **(وإِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ)**، عمل بالأركان، و**(الْحَيَاءُ)**، خُلق من الأخلاق الحسنة، خُلق حسن رفيع، يحمل على فعل ما يجمل ويزين، وعلى

---

(١) في البخاري برقم (٩)، وفي مسلم برقم (٣٥).

ترك كل ما يدنس ويشين، هذا تعريف الحياء، وقد ورد فيه أدلة كثيرة، أشهرها قوله في الحديث: (**إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسَ مِنْ كَلامِ النُّبُوَّةِ الأُولَى إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ ما شِئْتَ**)[1]، الحياء من الله: أن تستحي من الله أن يراك حيث ينهاك، أو يفقدك حيث أمرك.

(١) أخرجه البخاري (٣٤٨٤) من حديث أبي مسعود رضي الله عنه.

وَيُرَتِّبُونَ عَلَى هَذَا الأَصْلِ أَنَّ النَّاسَ فِي الإِيمَانِ دَرَجَاتٌ:

* مُقَرَّبُونَ.
* وَأَصْحَابُ يَمِينٍ.
* وَظَالِمُونَ لأَنْفُسِهِمْ.

بِحَسَبِ مَقَامَاتِهِمْ مِنَ الدِّينِ وَالإِيمَانِ، وَأَنَّهُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، فَمَنْ فَعَلَ مُحَرَّمًا أَوْ تَرَكَ وَاجِبًا، نَقَصَ إِيمَانُهُ الوَاجِبُ مَا لَمْ يَتُبْ إِلَى اللهِ.

وَيُرَتِّبُونَ عَلَى هَذَا الأَصْلِ أَنَّ النَّاسَ ثَلاثَةُ أَقْسَامٍ:

* مِنْهُم مَنْ قَامَ بِحُقُوقِ الإِيمَانِ كُلِّهَا، فَهُوَ المُؤْمِنُ حَقًّا.
* وَمِنْهُمْ مَنْ تَرَكَهَا كُلَّهَا، فَهَذَا كَافِرٌ بِاللهِ تَعَالَى.
* وَمِنْهُمْ مَنْ فِيهِ إِيمَانٌ وَكُفْرٌ، أو إِيمَانٌ وَنِفَاقٌ، أَوْ خَيْرٌ وَشَرٌّ، فَفِيهِ مِنْ وِلايَةِ اللهِ واسْتِحقَاقِهِ لِكَرَامَتِهِ، بِحَسَبِ مَا مَعَهُ مِنَ الإِيمَانِ، وَفِيهِ مِنْ عَدَاوَةِ اللهِ وَاسْتِحْقَاقِهِ لِعُقُوبَةِ اللهِ، بِحَسَبِ مَا ضَيَّعَهُ مِنَ الإِيمَانِ.

الشرح:

قد ذكر الله تعالى أقسامهم في أول سورة (الواقعة)، في قوله: ﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ [الواقعة: ٨- ١٠]، ولكن بالنسبة لأصحاب المشأمة، فليسوا من أهل الإيمان، وكأن الشيخ - رحمه الله تعالى- أراد بالتقسيم خاصة الذين يتسمون بأنهم مؤمنون، فإنهم يمكن تقسيمهم إلى هذه الثلاث، ويُستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ

بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢]، الظالم لنفسه: الذي عنده ذنوب، قد ارتكب سيئات، وعنده أخطاء، وترك واجبات، ولكنه ذكره الله مع جملة هؤلاء الذين هم من أهل الجنة، في قوله: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢].

وبالنسبة لأصحاب اليمين والمقربين، فهم الذين ذُكروا في سورة (الواقعة): ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الآيات: ١٠ - ١٢]، ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ۝٢٧ فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ۝٢٨ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ﴾ [الواقعة: ٢٧ - ٢٩] إلى آخره.

والظالمون لأنفسهم هم الذين عندهم شيء من المعاصي.

يقول بعض العلماء في تعريف هؤلاء الثلاثة: السابقون الأولون المقربون: هم الذين فعلوا الواجبات، وتقربوا بالمستحبات، وتركوا المحرمات، وتركوا المكروهات، وتركوا الكثير من المباحات، وأما المقتصدون فهم الذين فعلوا الواجبات، وتركوا المحرمات، ولم يتقربوا بشيء من المستحبات، ولا بترك شيء من المكروهات، فهؤلاء أصحاب اليمين.

وأما الظالمون لأنفسهم فإنهم الذين تركوا بعض الواجبات، وفعلوا بعضها، وفعلوا بعض المحرمات والمكروهات وتركوا بعضها، وتركوا أيضًا المستحبات وتوسعوا في المباحات.

وعلى كل حال: هكذا يقولون تقريبًا في أقسامهم.

قال - رَحِمَهُ اللَّهُ -: «بِحَسَبِ مَقَامَاتِهِمْ مِنَ الدِّينِ وَالإِيمَانِ»، أي: منازلهم، ثم ذكر «وَأَنَّهُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ»، أي: يزيد بالطاعة، وينقص، بالمعصية.

قوله -رحمه الله-: «فَمَنْ فَعَلَ مُحَرَّمًا»، أي: إذا زنى، أو رابى، أو سرق، أو نحو ذلك، نقص إيمان، وكذلك «أَوْ تَرَكَ وَاجِبًا»، كأن ترك صلاة، أو تخلف عن جماعة، أو ترك صيامًا، أو نحو ذلك، فهذا محرم وقد «نَقَصَ إِيمَانُهُ الوَاجِبُ مَا لَمْ يَتُبْ إِلَى اللهِ».

ومسألة زيادة الإيمان ونقصانه مسألة عريضة، والخلاف فيها أيضًا مع المرجئة، وذلك لأنهم يقولون: إن الإيمان شيء واحد، وإذا نقص فمعناه أنه ذهب، فالإيمان لا يتجزأ، وغفلوا عن هذا الحديث: **(الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أو بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً)**[١]، فإنها واضحة دلالته، وقد ذكرنا الأدلة التي فيها زيادة الإيمان، ومن الأدلة على نقصه قوله ﷺ: **(مَا رَأَيتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ)**[٢]، فجعل الدين ينقص، فدل على أنه يزيد، والدين والإيمان مسمى واحد، فمن فعل محرمًا كمن زنى، أو سرق، أو ترك واجبًا، بأن ترك صلاة -مثلاً- أو منع زكاة ماله، نقص إيمانه الواجب، ما لم يتب إلى الله، وإذا فعل ذلك وتاب فإن التوبة تمحو الذنب، و**(التائب من الذنب كمن لا ذنب له)**[٣]، فالإيمان ينقص، ولكن إذا تابوا إلى الله تعالى رجعت إليهم أعمالهم الصالحة.

ولهذا يقول الشيخ -رحمه الله-: «وَيُرَتِّبُونَ عَلَى هَذَا الأَصْلِ أَنَّ النَّاسَ ثَلاثَةُ أَقْسَامٍ...»، فهذه هي أقسام الناس، يعني من جملة الناس كلهم.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ومسلم (٧٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٠)، والبيهقي (١٥٤/١٠).

قوله -رحمه الله-: «مِنْهُم مَنْ قَامَ بِحُقُوقِ الإِيمَانِ كُلِّهَا»، لاشك أن المؤمنين الذين عملوا حسنات وواجبات، وعملوا معها مستحبات، وتركوا جميع المحرمات، وتركوا جميع المكروهات، وتركوا كثيرًا من المباحات؛ لأنها تصد عن الطاعات، فإن أحدهم والحال هذه يكون كامل الإيمان.

قوله- رحمه الله-: «وَمِنْهُمْ مَنْ تَرَكَهَا كُلَّهَا»، أي: الذين تركوا الواجبات كلها، وتركوا المستحبات، وفعلوا كل المحرمات، وفعلوا المكروهات، وتوسعوا في المباحات، هؤلاء كفار بالله تعالى.

قوله - رحمه الله-: «وَمِنْهُمْ مَنْ فِيهِ إِيمَانٌ وَكُفْرٌ»، أي: الإيمان الذي أظهره الإنسان، وباطنه وعقيدته التكذيب بالله تعالى وبرسله، فهذا لاشك أنه به كفر، لكن الذي فيه كفر قد يُقال: إنه كفر عملي، نحو قوله ﷺ: **(اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ)**[1]، وقوله ﷺ: **(سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ)**[2]، فيكون به ضعف إيمان.

قوله -رحمه الله-: «أَو إِيمَانٌ وَنِفَاقٌ»، وكذلك الذي فيه إيمان ونفاق، النفاق هو إظهار الإيمان وإبطان الكفر.

قوله -رحمه الله-: «أَوْ خَيْرٌ وَشَرٌّ، فَفِيهِ مِنْ وِلايَةِ اللهِ واسْتِحقَاقِهِ لِكَرَامَتِهِ، بِحَسَبِ مَا مَعَهُ مِنَ الإِيمَانِ،»، أي: فمثل هذا فيه من ولاية الله؛ لأنه يصدق عليه أنه من أولياء الله، وأنه مستحق لكرامته بما معه من الإيمان، أي من خصال الإيمان.

---

(١) أخرجه مسلم (٦٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

قوله - رَحِمَهُ اللَّهُ - : «وَفِيهِ مِنْ عَدَاوَةِ اللهِ وَاسْتِحْقَاقِهِ لِعُقُوبَةِ اللهِ، بِحَسَبِ مَا ضَيَّعَهُ مِنَ الإِيمَانِ»، يعني: بحسب نقص الإيمان حيث إن عنده نفاق، وقد يكون النفاق عمليًا، وهو الذي: (**إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أؤتمن خَانَ**)[1]، إيمان مع نفاق، خير وشر، الأعمال الصالحة خير والأعمال السيئة شر، فهذا فيه أنه مؤمن في الظاهر، فيكون من أولياء الله في الظاهر، يستحق ولاية الله تعالى، ويصدق عليه أنه من أولياء الله، ولكن ليست الولاية الكاملة له، وإنما هي ولاية ناقصة، فيستحق عداوة الله، ويستحق عقوبته، بحسب ما ضيعه من الإيمان، أو ما فعله من خصال الكفر، أي فيه مادتان: مادة الخير ومادة الشر، وهو لأغلبهما.

(١) أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وَيُرَتِّبُونَ عَلَى هَـذَا الأَصْلِ الْعَظِيمِ، أَنَّ كَبَائِرَ الذُّنُوبِ وَصَغَائِرَهَا الَّتِي لا تَصِلُ بِصَاحِبِهَا إِلَى الْكُفرِ، تُنْقِصُ إِيمَانَ الْعبْدِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخْرِجَهُ مِنْ دَائِرَةِ الإِسْلامِ، وَلا يَخْلُدُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ.

وَلا يُطْلِقُونَ عَلَيْهِ الكُفْرَ كَمَا تَقُولُهُ الْخَوَارِجُ، أَوْ يَنْفُونَ عَنْهُ الإِيمَانَ كَمَا تَقُولُهُ الْمُعْتَزِلَةُ، بَلْ يَقُولُونَ: هُوَ مُؤْمِنٌ بِإِيمَانِهِ، فَاسِقٌ بِكَبِيرَتِهِ، فَمَعَهُ مُطْلَقُ الإِيمَانِ، وَأَمَّا الإِيمَانُ الْمُطْلَقُ فَيُنْفَى عَنْهُ.

الشرح:

كبائر الذنوب ولو وصلت ما وصلت كالزنى والسرقة، لا يخرج بها من الإيمان خلافًا للمعتزلة، فإن المعتزلة يخرجونه من الإيمان، ولا يدخلونه في الكفر، ويجعلونه في منزلة بين منزلتين.

وأما الخوارج فإنهم يخرجونه من الإيمان ويدخلونه في الكفر بأدنى معصية.

وتوسط أهل السنة فقالوا: مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته، إيمانه الذي هو تصديقه بالله تعالى، وكبائر الذنوب وصغائرها التي لا تصل إلى الكفر تنقص الإيمان، ولكنها لا تخرجه من دائرة الإيمان، ولا أنه يستحق التخليد في النار، وإن دخل النار فإنه يخرج منها إما بشفاعة الشافعين، وإما برحمة أرحم الراحمين، وقد استفاضت في ذلك الأحاديث الكثيرة، فمن عقيدة أهل السنة أن أهل الكبائر ولو عملوا ما عملوا لا يكفرون، بل يُقال: إنهم عصاة ومذنبون، ولا يجوز قتالهم، ولا الخروج عليهم، ولا اعتقاد أنهم في النار مخلدون، وصرح بذلك الشيخ بقوله: «وَلا يُطْلِقُونَ عَلَيْهِ الكُفْرَ كَمَا تَقُولُهُ

الْخَوَارِجُ، أَوْ يَنْفُونَ عَنْهُ الإِيمَانَ كَمَا تَقُولُهُ الْمُعْتَزِلَةُ»، والفرق بين المعتزلة والخوارج:

أن الخوارج يكفرونه ويستحلون قتله، ويستحلون ماله ودمه، ويخلدونه في النار.

وأما المعتزلة فإنهم يخلدونه في النار، وأما في الدنيا فيجعلونه بمنزلة بين منزلتين: بين الكفر والإيمان، ولا يستحلون دمه، ولا أهله، ولا قتاله، ومع ذلك يعتقدون أنه خالد في النار.

قوله -رَحِمَهُ اللَّهُ-: «بَلْ يَقُولُونَ: هُوَ مُؤْمِنٌ بِإِيمَانِهِ، فَاسِقٌ بِكَبِيرَتِهِ، فَمَعَهُ مُطْلَقُ الإِيمَانِ، وَأَمَّا الإِيمَانُ الْمُطْلَقُ فَيُنْفَى عَنْهُ»، هذه عقيدة أهل السنة، فنحن لا نكفر الخوارج مع ما ورد فيهم من كثرة الأحاديث التي تدل على شبه الكفر، كقوله ﷺ: **(يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مروقَ السَّهْمُ من الرَّمِيَّةِ)**[١]، وتسميتهم **(كلاب النار)** كما في حديث أبي أوفى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«الْخَوَارِجُ كِلابُ النَّارِ»**. في بعض الأحاديث[٢] ولكن نقول: هذه من أحاديث الوعيد.

فأهل السنة لا يطلقون عليه الكفر، كقول الخوارج، ولا الإيمان الكامل، كما تقوله المرجئة، ولا يخرجونه من الإيمان، ويجعلونه في برزخ بين الإيمان والكفر كما تقوله المعتزلة: «بَلْ يَقُولُونَ: هُوَ مُؤْمِنٌ بِإِيمَانِهِ، فَاسِقٌ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٤)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٧٣).

بِكَبِيرَتِهِ»، هذه العبارة لشيخ الإسلام في الواسطية[1]: مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته.

قوله -رَحِمَهُ اللَّهُ-: «فَمَعَهُ مُطْلَقُ الإِيمَانِ»، الذي هو العقيدة والتصديق للرسل.

قوله -رَحِمَهُ اللَّهُ-: «وَأَمَّا الإِيمَانُ الْمُطْلَقُ فَيُنْفَى عَنْهُ»، يُجزم بأنه ليس بمؤمن إيمانًا مطلقًا؛ لأن معه بعض المعاصي، ومثل العصاة ونحوهم يشملهم اسم الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢]، يحرر عبدًا ولو كان مشهوراً بالفسوق ونحو ذلك.

---

(١) ص(٤٠).

وَبِهَذِهِ الأُصُولِ يَحْصُلُ الإِيمَانُ بِجميعِ نُصُوصِ الكِتَابِ والسُّنَّةِ، وَيَتَرَتَّبُ عَلَى هَذَا الأَصْلِ:

*** أَنَّ الإِسْلامَ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ.**

*** وَأَنَّ التَّوْبَةَ تَجُبُّ مَا قَبْلَهَا.**

*** وَأَنَّ مَنِ ارْتَدَّ، وَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ، فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ.**

*** وَمَنْ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ.**

وَيُرَتِّبُونَ أَيْضًا عَلَى هَذَا الأَصْلِ صِحَّةَ الاسْتِثْنَاءِ فِي الإِيمَانِ، فَيَصِحُّ أَنْ يَقُولَ: أَنَا مُؤْمِنٌ إِنْ شَاءَ اللهُ؛ لأَنَّهُ يَرْجُو مِنَ اللهِ تَعَالَى تَكْمِيلَ إِيمَانِهِ فَيَسْتَثْنِي لِذَلِكَ، وَيَرجُو الثَّبَاتَ عَلَى ذَلِكَ إِلَى الْمَمَاتِ فَيَسْتَثْنِي، مِنْ غَيْرِ شَكٍّ مِنْهُ بِحُصُولِ أَصْلِ الإِيمَانِ.

الشرح:

توسع - رَحِمَهُ اللَّهُ - فيما يتعلق بالإيمان، ولعل سبب ذلك قوة الخلاف فيه، والخلاف مع المرجئة الذين يغلبون جانب الرجاء، ويقولون: لا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل، هذه شبهتهم، فيقول قائلهم:

فكثر ما استطعت من الخطايا ... إذا كان القدوم على كريم

فيبيحون للناس التوسع في المعاصي، وفعل المحرمات، على أنها لا تضر، وقد يتعلقون بأحاديث فيها رجاء كبير لمن جاء بالتوحيد، مثل: قوله ﷺ: **(مَنْ مَاتَ لا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شيئا دخل الْجَنَّةَ)**[1]، ومثل قوله ﷺ: **(مَنْ شَهِدَ**

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٤٣)، ومسلم (٩٤) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ له، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عبد اللَّهِ، وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ، وَرُوحٌ منه، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ الله الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ)[1]، ومثل قوله ﷺ: (فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إلا الله يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ)[2]، وأشباه هذه الأحاديث، ولاشك أن الذين يقولون هذه الكلمة، يتأثرون بها ويعملون بها، ويكون من آثار العمل بها كثرة الحسنات، والبعد عن السيئات؛ لأن هذا هو الأصل في هذه الكلمة، أنها تأمر بالخير، فيكون من مكملاتها الأعمال الصالحة.

ثم يُقال أيضًا: إن المرجئة أرجؤوا الأعمال عن الإيمان، بمعنى أنهم لم يجعلوا الأعمال من مسمى الإيمان، وإنما يجعلون الإيمان هو: التصديق، وليست الأعمال من مسمى الإيمان، وهذا القول نُقل عن أبي حنيفة رحمه الله وقصده تفسير الإيمان في اللغة، ولكن أتباعه حملوا ذلك على أن المراد بذلك: الإيمان الشرعي أنه التصديق فقط، ولما كان الطحاوي رحمه الله من الأحناف لم يخرج عن قولهم، وادعى أن الإيمان هو الكلمة، أي: هو التصديق، وذكر أن الإيمان أهله في أصله سواء، ولما شرحه ابن أبي العز رحمه الله حاول أن يجمع بين قولهم، وبين قول أهل السنة، وادعى أن الخلاف لفظي، يعني أنكم تقولون: إن الأعمال من الإيمان، ونحن نقول: إن الإيمان هو التصديق الجازم، والتصديق الجازم يستلزم أعمالاً، وحاول في ذلك، ولم يصنع شيئًا.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٣٥)، ومسلم (٢٨) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٤٢٥) من حديث عتبان بن مالك رضي الله عنه.

ونقول: بل الخلاف معنوي، وليس الخلاف لفظيًا فقـط، ومما يدل على ذلك قوله ﷺ: **(الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ)**[1]، فجعل هـذا كله من الإيمـان، سبع وسبعون، أو ثمان وسبعون شعبة، أي خصلة كلها من الإيمان، ويُستدل من القرآن بآيات، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٥-١٦]، ستة أعمال كلها تبين أنها من الإيمان، إنما يؤمن بآياتنا هؤلاء، وهؤلاء حكم أنهم مؤمنون، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢-٤]، ذكر خمس خصال، وقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]، فجعل ذلك كله من الإيمان.

فيقول الشيخ -رحمه الله-: «وَبِهَذِهِ الأُصُولِ يَحْصُلُ الإِيمَانُ بِجمِيعِ نُصُوصِ الكِتَابِ والسُّنَّةِ»، يعني: التصـديق بذلك، فجميع نصـوص الكتاب يعـني الأوامـر والنـواهي التي في القـرآن، والتي في السنة، هـذه كلها يحصل للعبد الإيمان بها إيمانًا عقدياً، إيمانًا جازمًا، وفي القرآن أوامر كثيرة، متى ائتمروا بها، فإنهم يكونون من المؤمنين، مثل قوله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ

---

(١) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، جعل الله ذلك كله من البر، وجعله من التقوى، فيدل على أن هكذا يكون الإيمان، وهكذا تكون خصال المؤمنين، وقد ذكر الله تعالى خصال المؤمنين في عدد من الآيات، وهي دالة على أن هذا كله داخل في الإيمان، فالآيات التي يخاطب الله بها المؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، هذا كله من الإيمان، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠]، هذا من الإيمان، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

فالحاصل أن: في هذه الأصول يحصل الإيمان بجميع نصوص الكتاب والسنة.

قوله -رَحِمَهُ اللَّهُ-: «وَيَتَرَتَّبُ عَلَى هَذَا الأَصْلِ»، يعني: يترتب على هذا الأصل أمور.

أولاً: قال: «أَنَّ الإِسْلامَ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ»، الصحيح أن الإسلام والإيمان يهدمان ما قبلهما من الكفر والسيئات والمخالفات؛ وذلك لأن الكفار لما سمعوا هذه الدعوة كأنهم قالوا: نحن قد أشركنا، وقد فعلنا وفعلنا، فلا ينفعنا هذا الإيمان، فأخبر الله تعالى بأن التوبة تجب ما قبلها، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨]، إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖ﴾ [الفرقان: ٧٠]، أي: بدل ما كانوا يعملون السيئات، ويكثرون منها، يبدل الله سيئاتهم، ويوفقهم لأن يعملوا الأعمال الصالحة، والحسنات الماحية، ولما جاء عمرو بن العاص ليُسلم ويبايع النبي ﷺ، قال: «أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِطَ»، قال ﷺ: (تَشْتَرِطُ بِمَاذَا؟)، قال: (أَنْ يُغْفَرَ لي)، قال: (**أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الإِسْلامَ يَهْدِمُ ما كان قَبْلَهُ، وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ ما كان قَبْلِهَا، وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ ما كان قَبْلَهُ**)[1]، يعني: يمحو الله عن الكفار ما كانوا عليه من الشرك بالإسلام الصحيح، إذا استمروا على ذلك، ولما سُئل ﷺ: (يا رَسُولَ اللَّهِ أَنُؤَاخَذُ بِمَا عَمِلْنَا في الْجَاهِلِيَّةِ)، قال: (**مَنْ أَحْسَنَ في الإِسْلام لم يُؤَاخَذْ بِمَا عَمِلَ في الْجَاهِلِيَّةِ، وَمَنْ أَسَاءَ في الإِسْلام أُخِذَ بِالأَوَّلِ وَالآخِرِ**)[2]، الذي إسلامه إسلامًا ظاهريًا ليس باطنيًا، فلم يتبعه بعمل صالح يؤاخذه الله، فيؤخذ بالأول والآخر، جزاء على عدم تمكن الإيمان من قلبه.

يقول - رحمه الله -: «وَأَنَّ التَّوْبَةَ تَجُبُّ مَا قَبْلَهَا»، ثم يقول: «وَأَنَّ مَنِ ارْتَدَّ، وَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ، فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ»، الذين أسلموا وآمنوا وعملوا عملاً صالحًا، ثم بعد ذلك عادوا إلى الكفر، أو خرجوا من الإيمان، فهؤلاء تحبط أعمالهم، وذكر الله بعض الأعمال التي تحبط بالكفر ونحوه، في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ [البقرة: ٢١٧]، بهذا الشرط: الردة، والبقاء على الردة، وعدم التوبة منها، دل على أنه إذا ارتد ثم تاب، تاب الله عليه، وقال جل وعلا: ﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ

(١) أخرجه مسلم (١٢١) من حديث ابن شماسة المهري.

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٢١)، ومسلم (١٢٠) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

يَعْمَلُونَ ﴾[الأنعام: ٨٨]، يعني: الشرك يحبط الأعمال، وقال عز وجل: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٥]، فمن ارتد ومات على كفره حبط عمله، «وَمَنْ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ»، يعني: توبة صالحة صادقة، والتوبة لها ثلاثة شروط:

الأول: الإقلاع عن الأعمال السيئة.

الثاني: الندم على ما فات.

الثالث: العزم على أن لا يعود.

ثم يقول -رحمه الله-: «وَيُرَتِّبُونَ أَيْضًا عَلَى هَذَا الأَصْلِ»، الذي هو الإيمان الصادق، «صِحَّةَ الاسْتِثْنَاءِ فِي الإِيمَانِ»، وهذه وقع فيها خلاف:

فمنهم: من يمنع الاستثناء، ويقول: أنا مؤمن حقًا، تقول له: قل إن شاء الله، قال: أنا لا أشك، أنا مؤمن حقًا، أنا مؤمن يقينًا، ويسمون الذين يستثنون شكّاكاً، هؤلاء شكّاك يشكون في إيمانهم، ويشكون في عقيدتهم.

ومنهم: من إذا قيل له: هل أنت مؤمن؟ يقول: آمنت بالله، وآمنت بشرع الله.

ومنهم: من إذا قيل له: أنت مؤمن؟ يقول: أنا مؤمن إن شاء الله. وعلى أي شيء يستثني؟

قيل: إنه يستثني للعاقبة، للنهاية؛ لأنه لا يدري ما يحدث؛ فلذلك يستثني.

وقيل: إن الاستثناء لأجل خوف النقص، لأن المؤمن هو الذي إيمانه كامل، فكأنه يقول: أنا مؤمن إن شاء الله، بمشيئة الله يوفقني ربي، حتى أكمل خصال الإيمان، فالإيمان بضع وستون، أو بضع وسبعون شعبة، فيستثني للنقص، وهو من طبع الإنسان، فإن طبيعة الإنسان كونه ناقصًا في بعض الأشياء.

والصحيح أنه يجوز الاستثناء في الإيمان، «فَيَصِحُّ أَنْ يَقُولَ: أَنَا مُؤْمِنٌ إِنْ شَاءَ اللهُ»، ولا يكون ذلك شكًا، وإنما يرجو من الله تكميل إيمانه، فكأنه يقول أرجو أن الله تعالى يوفقني أن يكون إيماني إيمانًا كاملاً؛ لأني لا أملك ذلك إلا بإذن الله تعالى، فيستثني لهذا السبب، «وَيَرجُو الثَّبَاتَ عَلَى ذَلِكَ إِلَى الْمَمَاتِ فَيَسْتَثْنِي»، كأنه يقول: لا أدري ما الخاتمة ولكن استثني، حتى يثبتنا الله تعالى على هذا الإيمان حتى نموت عليه، «مِنْ غَيْرِ شَكٍّ مِنْهُ بِحُصُولِ أَصْلِ الإِيمَانِ»، أي: وليس ذلك شكًا بحصول الإيمان، لأن الإنسان يجزم من نفسه، ويعرف من نفسه أنه مؤمن بالله، وبآيات الله، وبكتبه، ورسله، وباليوم الآخر، ولكن يقول: أنا أخشى من العاقبة السيئة، وأخشى أن لا أحقق هذا الإيمان، وأخشى أن أموت على ضده، وأشباه ذلك.

وَيُرَتِّبُونَ أَيْضًا عَلَى هَذَا الأَصْلِ أَنَّ الْحُبَّ وَالْبُغْضَ أَصْلُه وَمِقْدَارُه، تَابِعٌ لِلإِيمَانِ وُجُودًا وَعَدَمًا، وَتَكْمِيلاً وَنَقْصًا.

ثُمَّ يَتْبَعُ ذَلِكَ الْوَلايَةُ وَالْعَدَاوَةُ؛ وَلِهَذَا مِنَ الإِيمَانِ: الْحُبُّ فِي اللهِ، وَالْبُغْضُ فِي اللهِ، وَالْوَلايَةُ للهِ، وَالْعَدَاوَةُ للهِ.

وَيَتَرَتَّبُ عَلَى الإِيمَانِ وَلا يَتِمُّ إِلا بِأَنْ يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ.

وَيَتَرَتَّبُ عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا مَحَبَّةُ اجْتِمَاعِ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْحَثُّ عَلَى التَّآلُفِ وَالتَّحَابُبِ، وَعَدَمِ التَّقَاطُعِ.

وَيَبْرَأُ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ مِنَ التَّعَصُّبَاتِ وَالتَّفَرُّقِ وَالتَّبَاغُضِ.

وَيَرَوْنَ هَذِهِ الْقَاعِدَةَ مِنْ أَهَمِّ قَوَاعِدِ الإِيمَانِ، وَلا يَرَوْنَ الاخْتِلافَ فِي الْمَسَائِلِ الَّتِي لا تُوصِلُ إِلَى كُفْرٍ، أَوْ بِدْعَةٍ مُوجِبَةٍ لِلتَّفَرُّقِ.

الشرح:

هذا أيضًا مما يترتب على الإيمان وهي هذه الأربع: الحب في الله، والبغض في الله، والموالاة في الله، والمعاداة في الله.

يعني: أن يحب الله، ويحب من يحبهم الله من الأشخاص، ويحب ما يحبه الله من الأعمال الصالحة، فيقول: أحب ذكر الله؛ لأني أحب الله، وأحب دعاءه، وأحب كلامه، وأحب الصلاة له، والصوم له، و أحب الحج والعمرة لله، وأحب كل عمل يحث عليه، هذا حب الأعمال، وكذلك أيضًا حب أهلها، أنت إذا أحببتَ الله، أحببتَ الأعمال الصالحة، تحب الصلاة، وتكثر منها، وتحب الصيام، وتكثر منه، وتحب الصدقة، وتكثر منها، وتحب الذكر، والدعاء، والقرآن، ونحو ذلك.

وكذلك أيضًا تبغض، ضد ذلك لاشك أن من أحب شيئًا أبغض ضده، فإذا كنت تحب الله، أبغضتَ أعداء الله، وإذا كنت تحب الطاعة، أبغضت المعصية، إذا كنت تحب الخير، أبغضتَ الشر والأشرار، فلابد أن يكون الحب معه البغض، فيحب الله تعالى، ويحب طاعته، ويبغض أعداءه، ويبغض معصيته، هذا الحب والبغض.

قوله - رحمه الله -: «ثُمَّ يَتْبَعُ ذَلِكَ الْوَلايَةُ وَالْعَدَاوَةُ»، وكذلك الموالاة والمعاداة، وهي ثمرة من ثمار الأعمال الصالحة، والموالاة هي: التولي لأهل الخير، يوالي الأخيار، وينصرهم، ويقترب منهم، ويقتدي بهم، ويتقبل نصائحهم وتوجيهاتهم، ويتشبه بهم، ويحرص أن يكون مثلهم في الأعمال.

وضد ذلك المعاداة في الله، يبغض الشر وأهله، ويقاطعهم، ولو كانوا أقرب قريب، فيبغض الكفار، ويبغض المبتدعة، ويبغض أهل المعاصي لله تعالى، هكذا حالة المؤمن، يبغضهم لأن الله يبغضهم، فيبغض الكفار أيًا كان نوعهم، ويبغض أهل البدع، الذين عندهم بدع، وأصروا عليها، ويبغض أهل المعاصي.

فهكذا الحب في الله، والبغض في الله، والموالاة في الله، والمعاداة في الله.

قوله -رحمه الله-: «وَيَتَرَتَّبُ عَلَى الإِيمَانِ وَلا يَتِمُّ إلا بِأَنْ يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»، أي: يترتب على الإيمان، ولا يتم الإيمان إلا بأن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، هذا أيضًا من تكملة الإيمان؛ لقول النبي ﷺ: **(لا يُؤْمِنُ أحدكم حتى يُحِبَّ لأَخِيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ)**[1]، والمراد بأخيه: الأخ في الدين، ولو بعدت الأنساب والقبائل، ولو كان عبدًا حبشيًا، ولو كان بربريًا، أو

---

(١) أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

تركيًا، أو نحوه، إذا كان عبدًا صالحًا، فإن المؤمن يحبه محبة لله تعالى، وإذا أحبه دله على الخير، وأرشده إليه؛ لأنه يعرف بذلك أنه أهل للخير، فإذا كان جاهلاً تعلمه، وترشده، وإذا لم يقبل تخبره بأنه ما حملني على هذا إلا نصيحتك، تقول له: أنا أحب لك الخير، ولا أريد منك جزاءً ولا شكورًا، إنما أريد أن أدلك على الخير الذي أنا أعلمه.

وكذلك أيضًا خير الدنيا أيضًا؛ لأنك إذا دللته على شيء من مصالح الدنيا النافعة، وثق بأنك تحبه، وعرف صدق محبتك وإخوتك، فلا يتم الإيمان كاملاً إلا بأن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويكره لأخيه ما يكره لنفسه، وفي المصالح الدنيوية التي قد تكون ضرورية، أو أهلها يحبونها، ويحرصون على أن تحصل لهم، إذا رأيت مصالح دنيوية، كتجارة نافعة مباحة، أو حرفة نافعة، أو نحو ذلك، دللته عليها، وأرشدته إليها، فيعرف بذلك مودتك وصدق محبتك، أما إذا لم تفعل، فإنه يظن أنك تبغضه وتحقره، حيث إنك تستبد بالمصالح دونه.

قوله -رَحِمَهُ اللَّهُ-: «وَيَتَرَتَّبُ عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا مَحَبَّةُ اجْتِمَاعِ الْمُؤْمِنِينَ»، هذا أيضًا مما يترتب على الإيمان الصادق، وإذا أحب ذلك سعى في تحقيقه، فالمؤمنون الذين هم أهل السنة والجماعة، الصادقون في إيمانهم، يحزن المؤمن لتفرقهم وتحزبهم، ويحب لهم أن يكونوا أمة واحدة، كما أمر الله بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، فيحرص على جمع كلمتهم.

وإذا رأى منهم شيئًا من البغضاء أو التقاطع أو نحو ذلك، حرص على أن يجمعهم، وعلى أن يقرب بعضهم من بعض، فيقول لهم: لماذا هذا التقاطع؟ ولم هذا التهاجر؟ كلكم مؤمنون، وكلكم من أهل السنة، وكلكم تدينون

بالإسلام، فلا موجب لهذا التقاطع، وعليكم أن تتآلفوا، وأن تجتمعوا، فإن اجتماعكم يعد قوة لكم على أعدائكم.

وأهل المدينة في الجاهلية كان بينهم عداوة، بين الأوس والخزرج، ولما جاء الإسلام زالت تلك العداوة، ذكّر الله نبيه، وذكّرهم بقوله تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: ٦٣]، والسبب أنهم قالوا: نحن مؤمنون، فكيف نتذكر الأعمال السيئة أعمال الجاهلية، فألف الله تعالى بين قلوبهم، وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، هذا مما ذكرهم الله به، فالمؤمن يحرص على أن يجتمع المؤمنون؛ ليكونوا يدًا واحدة على أعدائهم، فإنهم إذا تفرقوا تمكن الأعداء مما يريدون، وفي المثل: فرّق تسد.

قوله -رحمه الله-: «وَالْحَثُّ عَلَى التَّآلُفِ والتَّحَابُبِ، وَعَدَمِ التَّقَاطُعِ»، التآلف فيما بينهم أن يكونوا ألفة متآلفين، وأن يكونوا متحابين، وأن تبتعد عنهم القطيعة، والتقاطع هو: قطع القرابة، أو قطع الصلة، ونحو ذلك.

يقول -رحمه الله-: «وَيَبْرَأُ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ مِنَ التَّعَصُّبَاتِ، والتَّفَرُّقِ، والتَّبَاغُضِ»، أهل السنة وأهل الجماعة الإسلامية هم أهل الإسلام الصحيح، وهم الجماعة، ولما ذكر النبي ﷺ فرق الأمة قال[1]: **(كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلا**

---

(١) ورد حديث الافتراق من طرق متعددة، عن عدد من الصحابة رضي الله عنهم بألفاظ بألفاظ متقاربة، فقد روي من حديث أبي هريرة، وأنس، وسعد بن أبي وقاص، ومعاوية، وعمرو بن عوف المزني، وعوف بن مالك، وأبي أمامة، وجابر بن عبدالله، وعبدالله بن عمرو رضي الله عنهم.
أخرجه أبوداود (٤٥٩٦، ٤٥٩٧)، والترمذي (٢٦٤٠، ٢٦٤١)، وابن ماجه (٣٩٩١، ٣٩٩٢، ٣٩٩٣)، وأحمد (٣٣٢/٢)، (١٢٠/٣، ١٤٥)، (١٠٢/٤)، وغيرهم.

وَاحِدَةً) جاء في رواية: **(وَهِيَ الْجَمَاعَةُ)**، فأهل السنة والجماعة يبتعدون عن التعصبات، لا يكون بينهم تعصب؛ لأن التعصب من أمر الجاهلية، قال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦]، فالإسلام أبطل هذه الحمية، وذكر الله تعالى عباده بذلك بقوله: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [الفتح: ٢٦]، فيبرأ المسلمون من التعصبات.

وقد ابتلي بها كثير في هذه الأمة، مع أن هذا ليس شرعيًا، تفرقهم في المذاهب: حنفي ومالكي وشافعي .. إلى آخره، ولا ينبغي أن يتمادوا معه، وأن يتعصبوا.

وكذلك أيضًا قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال عز وجل: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وقال جل وعلا: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ [الروم: ٣٢]، فهو سبحانه يحث على الاجتماع وترك التفرق، وكذلك ترك التباغض، يعني: أن يبغض أحدهم إخوته، أو حزبًا غير حزبه، ونحو ذلك.

يقول -رَحِمَهُ اللَّهُ-: «وَيَرَوْنَ هَذِهِ الْقَاعِدَةَ مِنْ أَهَمِّ قَوَاعِدِ الإِيمَانِ»، هذه القاعدة التي هي محبة المؤمنين، ومحبة الخير لهم، وترك التعصب، وترك التفرق، وترك والتباغض، من أهم قواعد الإيمان.

قال -رَحِمَهُ اللَّهُ-: «وَلا يَرَوْنَ الاخْتِلافَ فِي الْمَسَائِلِ الَّتِي لا تُوصِلُ إِلَى كُفْرٍ، أَوْ بِدْعَةٍ مُوجِبَةٍ لِلتَّفَرُّقِ»، هذا الاختلاف في الفروع مبناه الاجتهاد، يعني: الحنفية لهم اجتهادات في الفروع، ولكنهم جميعًا في العقائد متفقون، وكذا يُقال في المالكية والشافعية والحنابلة، العقيدة واحدة، والتوحيد واحد للجميع،

وإن اختلفوا في بعض المسائل الاجتهادية، ومع ذلك فإن هذا الاختلاف لم يؤد إلى تعصب، ولا إلى تباغض وتقاطع، بل كلهم مع هذا التفرق، ومع هذا الاختلاف في الفروع، كلهم إخوة يجتمعون ويصلون جميعًا، ويقرأ بعضهم على بعض، ويستفيد بعضهم من بعض، هذه من ثمرات الإيمان بالله.

وَيَتَرَتَّبُ عَلَى الإِيمَانِ مَحَبَّةُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، بِحَسَبِ مَرَاتِبِهِمْ، وَأَنَّ لَهُمْ مِنَ الْفَضْلِ، وَالسَّوَابِقِ، وَالْمَنَاقِبِ، مَا فَضَلُوا فِيهِ سَائِرَ الأُمَّةِ.

وَيَدِينُونَ بِمَحَبَّتِهِمْ، وَنَشْرِ فَضَائِلِهِمْ، وَيُمْسِكُونَ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، وَأَنَّهُمْ أَوْلَى الأُمَّةِ بِكُلِّ خَصْلَةٍ حَمِيدَةٍ، وَأَسْبَقُهُمْ إِلَى كُلِّ خَيْرٍ، وَأَبْعَدُهُمْ مِنْ كُلِّ شَرٍّ.

وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ الأُمَّةَ لا تَسْتَغْنِي عَنْ إِمَامٍ يُقِيمُ لَهَا دِينَهَا وَدُنْيَاهَا، وَيَدْفَعُ عَنْهَا عَادِيَةَ الْمُعْتَدِينَ، وَلا تَتِمُّ إِمَامَتَه إِلا بِطَاعَتِهِ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةِ اللهِ تَعَالَى.

وَيَرَوْنَ أَنَّهُ لا يَتِمُّ الإِيمَانُ إِلا بالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ بِالْيَدِ، وَإِلا بِاللِّسَانِ، وَإِلا فَبِالْقَلْبِ عَلَى حَسَبِ مَرَاتِبِهِ الشَّرْعِيَّةِ، وَطُرُقِهِ الْمَرْعِيَّةِ.

وَبِالْجُمْلَةِ، فَيَرَوْنَ الْقِيَامَ بِكُلِّ الأُصُولِ الشَّرْعِيَّةِ عَلَى الْوَجْهِ الشَّرْعِيِّ مِنْ تَمَامِ الإِيمَانِ وَالدِّينِ. وَمِنْ تَمَامِ هَذَا الأَصْلِ طَرِيقُهُم فِي العِلْمِ وَالْعَمَلِ.

الشرح:

لما ذكر الإيمان وذكر ما فيه من الأعمال ذكر ما يترتب عليه:

فيترتب عليه: الاستثناء في الإيمان.

ويترتب عليه: الحب والبغض.

ويترتب عليه: أن يحب المسلم لأخيه ما يحب لنفسه.

ويترتب عليه: اجتماع المؤمنين وتآلفهم وتحابهم.

ويترتب عليه: «مَحَبَّةُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، بِحَسَبِ مَرَاتِبِهِمْ، وَأَنَّ لَهُمْ مِنَ الْفَضْلِ، وَالسَّوَابِقِ، وَالْمَنَاقِبِ، مَا فَضَلُوا فِيهِ سَائِرَ الأُمَّةِ»، أي من بعدهم، ويشير بذلك إلى الإنكار على الرافضة الذين يبغضون الصحابة، والذين يكفرونهم

ويسبونهم، وبالأخص أبا بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، ويدعون أنهم مغتصبون للخلافة وللولاية، وأنهم بخسوا عليًا رضي الله عنه حقه، وأنه هو الوصي؛ ولأجل ذلك يكفرون هؤلاء الصحابة، ويصرحون باللعن، عليهم من الله ما يستحقونه.

فنحن نحب الصحابة رضي الله عنهم؛ لسبقهم إلى الإيمان، ونقول: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠]، ونطبق عليهم الآيات التي فيها مدحهم، ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ﴾ [الفتح: ٢٩]، ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾ [الحشر: ٨]، ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الحشر: ٩]، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟﴾ [الأنفال: ٧٤]، ونحو ذلك من الأدلة التي فيها مدحهم، وكذلك قوله ﷺ: **(لا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فلو أن أحدكم أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا ما بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ ولا نَصِيفَهُ)**[1]؛ ذلك لسبقهم، ولأعمالهم الصالحة، ولجهادهم في حال ضعف الإسلام، ولتمسكهم بالدين، ولفضائلهم، ونقول: إنهم مراتب:

المرتبة الأولى: الخلفاء الراشدون، فإن لهم فضل كما ذكر ذلك العلماء في كتب الفضائل.

الثانية: بقية العشرة المبشرين بالجنة.

الثالثة: المهاجرون الأولون، الذين هاجروا الهجرتين.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

الرابعة: بقية المهاجرين الذين هاجروا قبل صلح الحديبية.

الخامسة: الذين أسلموا قبل الصلح.

السادسة: مسلمة الفتح.

السابعة: بقية المسلمين الذين أسلموا في حياة النبي ﷺ، وصحبوه ولو قليلاً.

نعتقد أن لهم فضل، وأن لهم سوابق، وأن لهم مناقب، فضلوا بها بقية الأمة، وفضائلهم في القرآن، وكذلك سوابقهم: وهي أعمالهم التي سبقوا بها من بعدهم، ومناقبهم: وهي أعمالهم التي فضلوا بها على سائر الأمة، جحدها هؤلاء الأعداء من الرافضة، وركزوا على فضل علي وابنيه وزوجته، ثم ذرية الحسين، وتركوا بقية أولاد علي، وأولاد الحسن وذريته، فهؤلاء الروافض جحدوا فضائل هؤلاء الصحابة.

يقول -رحمه الله-: «وَيَدِينُونَ بِمَحَبَّتِهِمْ وَنَشْرِ فَضَائِلِهِمْ»، ورد أنه ﷺ قال في الأنصار: **(الأَنْصَارُ لا يُحِبُّهُمْ إلا مُؤْمِنٌ، ولا يُبْغِضُهُمْ إلا مُنَافِقٌ)**(١)، ومعلوم أن المهاجرين أفضل منهم؛ وذلك لأن الله تعالى ذكر فضائل المهاجرين، وبدأ بهم قبل الأنصار في قوله: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١١٧]، وفي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَـٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٢٠]، ذكر المهاجرين، وفي الآية الأخرى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَـٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ [الأنفال: ٧٢]، ذكر بعدهم الأنصار،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٨٣)، ومسلم (٧٥) من حديث البراء رضي الله عنه.

فإذا كان فضل الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق، فبطريق الأولى المهاجرون، وكذلك بقية الصحابة ﭫ، فنحبهم محبة نذكر بها فضائلهم، ونقول: إنهم قدوة لمن بعدهم، وأنهم أمناء على شرع الله ووحيه، فهم الذين بلغونا القرآن والسنة، والأعمال الصالحة، بأقوالهم وأفعالهم، ولهم فضائل كثيرة ذكرها العلماء، ومنهم: البخاري في صحيحه، ذكر كتاب الفضائل، بدأ بفضائل أبي بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي ﭫ، وكذا فعل مسلم، وكذا فعل الترمذي في سننه في كتاب المناقب، وكذا فعل النسائي، وكذا فعل ابن ماجه في مقدمة سننه، وكذا فعل الإمام أحمد في كتاب الفضائل.

ثم يقول -رحمه الله-: «وَيُمْسِكُونَ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَهُمْ»، أي: ما حصل بينهم وهذا حصل في خلافة علي ﭬ؛ لأنه لما خرج عليهم أولئك الذين قتلوا عثمان ﭬ، رأى بعض الصحابة أن يبدوؤا بقتال أولئك الذين قتلوا عثمان ﭬ، وذهبوا من مكة ولم يبايعوه، يريدون القضاء على أولئك الذين قتلوا عثمان ﭬ من العراق، فذهب بأثرهم، وحصلت خلافات، وحصلت واقعات بين علي ﭬ ومن معه، وعائشة ﭭ ومن معها، ثم حصلت واقعة أخرى أكبر منها، بين أهل العراق وأهل الشام.

فنقول: نمسك عن ذلك، ولا نخوض فيه، وكذلك أيضًا ما يذكره الرافضة من المطاعن، التي يطعنون بها في الشيخين وفي بقية الصحابة، يدعون أنهم ارتدوا بعد النبي، وردتهم أنهم كتموا الوصية، وكل ذلك من الكذب والبهتان العظيم.

ثم قال -رَحِمَهُ اللَّهُ-: «وَأَنَّهُمْ أَوْلَى الأُمَّةِ بِكُلِّ خَصْلَةٍ حَمِيدَةٍ»، يعني: أحق بأن يكونوا أهل الخصال الحميدة، وأهل الأعمال الصالحة، وأهل العلوم النافعة، وهم أولى ممن بعدهم، وبطريق الأولى أن يكونوا أولى من الرافضة، الذين يكفرونهم ويطعنون فيهم.

قوله: «وَأَسْبَقَهُمْ إِلَى كُلِّ خَيْرٍ، وَأَبْعَدَهُمْ مِنْ كُلِّ شَرٍّ»، لأنهم صحبوا النبي ﷺ، وعرفوا الخير والشر، الذي دلهم عليه، فكانوا يسابقون إلى الخيرات، ويبتعدون عن الشرور، فهذه من فضائلهم، هكذا نعتقد. وهذا ما يعتقد بالصحابة رضي الله عنهم.

ثم ذكر -رَحِمَهُ اللَّهُ- بعد ذلك أن أهل السنة «يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الأُمَّةَ لا تَسْتَغْنِي عَنْ إِمَامٍ يُقِيمُ لَهَا دِينَهَا وَدُنْيَاهَا، وَيَدْفَعُ عَنْهَا عَادِيَةَ الْمُعْتَدِينَ»، وهذا ما حمل الصحابة رضي الله عنهم أن جعلوا إمامهم الأول أبا بكر رضي الله عنه واختاروه؛ لأن النبي ﷺ اختاره إمامًا لهم في الصلاة، فقالوا: رضينا لدنيانا من رضيه النبي ﷺ لديننا، فلا تستغني الأمة عن إمام، وهذا الإمام يقيم لهم دينهم، وعليه أن يعلمهم، ويحفظ عليهم دينهم، وكذلك يحفظ لهم دنياهم، أي أمنهم، والطمأنينة لهم، ويرتب الأمور، فيجهز الجيوش، ويحفظ البلاد، ويقيم العبادات، ويقيم الشريعة ونحو ذلك. وقد فعلوا ذلك في تولية أبي بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي رضي الله عنهم، ثم انتقلت الخلافة إلى معاوية رضي الله عنه، ثم ابنه، ثم بعد ذلك إلى عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما برهة، ثم إلى بني مروان، ثم إلى بني العباس، ثم من تولى الخلافة من الترك، ثم بعد ذلك صار المسلمون متفرقين، لكل دولة إمام، يقيم لهم دينهم ودنياهم، وإن كان بعض الأئمة في هذه الأزمنة غيروا الشريعة، واختاروا القوانين

عليهم إلا ما شاء الله.

يقول -رَحِمَهُ اللَّهُ-: «وَلا تَتِمُّ إِمَامَتُه إلا بِطَاعَتِهِ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةِ اللهِ تَعَالَى»، يقول ﷺ: (**مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي**)[1]، وكان يأمر بطاعة ولاة الأمر في أحاديث كثيرة، حتى يقول: (**تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلأَمِيرِ، وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ، وَأُخِذَ مَالُكَ، فَاسْمَعْ وَأَطِعْ**)[2]، إلا في المعصية، فإن أمروا بالمعصية فلا سمع ولا طاعة، لقوله ﷺ: (**على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة**)[3].

ثم يقول الشيخ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: «وَيَرَوْنَ أَنَّهُ لا يَتِمُّ الإِيمَانُ إلا بِالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ بِالْيَدِ، وَإِلا بِاللِّسَانِ، وَإِلا فَبِالْقَلْبِ، عَلَى حَسَبِ مَرَاتِبِهِ الشَّرْعِيَّةِ، وَطُرُقِهِ الْمَرْعِيَّةِ»؛ لأن هذا من واجبات الإسلام، وهو صفة المؤمنين لقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وفي قوله عز وجل: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وفي قوله جل وعلا: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١]، والمعروف: ما أمر الله به، والمنكر: ما نهى الله عنه، وسمي المعروف بذلك؛ لأنه مما تعرفه

---

(١) أخرجه البخاري (٧١٣٧)، ومسلم (١٨٣٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (١٨٤٧) من حديث حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٧١٤٤)، ومسلم (١٨٣٩)، ومن حديث عبدالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الفطر السليمة، والعقول المستقيمة، وسمي المنكر منكرًا؛ لأنه مما تنكره كل فطرة سليمة، وأن الله تعالى ما أمر إلا بما هو مناسب، ومعروف عند العقلاء، وما نهى إلا عما فيه مفسدة ومضرة.

وإنكار المنكر على مراتب على حسب حديث أبي سعيد ﷺ الذي في الصحيح: **(من رَأى مِنكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بيده، فَإِنْ لم يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لم يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ)**[1]، هذه مراتبه الشرعية، وطرقه المرعية، فإذا كان عند الإنسان قدرة وصلاحية، فإنه يغيره بيده بأن يتلف المنكرات، فيتلف الخمور ودنانها -مثلاً-، ويحرق كل ما هو من المنكرات، والمعبودات ونحو ذلك، ويهدم المعابد والشركيات، ويزيل أثرها، ويجاهد الكفار بيده، وإذا لم يقدر انتقل إلى الإنكار باللسان، فيتكلم ويوضح المنكر بلسانه ويبينه بياناً ظاهرًا، وإذا خشي على نفسه وكان أهل المنكر أقوى منه، وكان وحيدًا أنكره بقلبه، وكرهه وكره أهله وابتعد عنهم، فهذه مراتب تغيير المنكر، وهذه طرقه التي يسلكها الذين يقومون به.

يقول الشيخ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: «وَبِالْجُمْلَةِ، فَيَرَوْنَ الْقِيَامَ بِكُلِّ الأُصُولِ الشَّرْعِيَّةِ عَلَى الْوَجْهِ الشَّرْعِيِّ مِنْ تَمَامِ الإِيمَانِ وَالدِّينِ»، القيام بأصول الشريعة، القيام بما أمر الله به، وإظهاره: أداء العبادات، كالصلوات، والجماعات، وإخراج الزكوات، وشرعية الحج وأداؤه، وشرعية القتال في سبيل الله، كل ذلك من الأصول الشرعية.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٩).

يقول -رَحِمَهُ اللَّهُ-: «وَمِنْ تَمَامِ هَذَا الأَصْلِ طَرِيقُهُم فِي العِلْمِ وَالْعَمَلِ»، أي: بيان أنهم يبدؤون بالعلم ثم بعد ذلك بالعمل، ثم بعد ذلك بالبيان والبلاغ والدعوة، ونحو ذلك.

الأَصْلُ الْخَامِسُ

طَرِيقُهُمْ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ

وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، يَعْتَقِدُونَ وَيَلْتَزِمُونَ أَنْ لا طَرِيقَ إِلَى اللهِ وَإِلَى كَرَامَتِهِ إِلا بِالْعِلْمِ النَّافِعِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

فَالْعِلْمُ النَّافِعُ هُوَ: مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ مِنْ كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، فَيَجْتَهِدُونَ فِي مَعْرِفَةِ مَعَانِيهَا وَالتَّفَقُّهِ فِيهَا، أُصُولاً وَفُرُوعًا.

وَيَسْلُكُونَ جَمِيعَ طُرُقِ الدَّلالاتِ فِيهَا: دِلالَةِ الْمُطَابَقَةِ، وَدِلالَةِ التَّضَمُّنِ، وَدِلالَةِ الالْتِزَامِ.

وَيَبْذُلُونَ قُوَاهُمْ فِي إِدْرَاكِ ذَلِكَ بِحَسَبِ مَا أَعْطَاهُمُ اللهُ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ هَذِهِ الْعُلُومُ النَّافِعَةُ، هِيَ وَمَا تَفَرَّعَ عَلَيْهَا مِنْ أَقْيِسَةٍ صَحِيحَةٍ، وَمُنَاسَبَاتٍ حُكْمِيَّةٍ.

وَكُلُّ عِلْمٍ أَعَانَ عَلَى ذَلِكَ، أَوْ وَازَرَهُ أَوْ تَرَتَّبَ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ عِلْمٌ شَرْعِيٌّ، كَمَا أَنَّ مَا ضَادَّهُ وَنَاقَضَهُ، فَهُوَ عِلْمٌ بَاطِلٌ، فَهَذَا طَرِيقُهُم فِي الْعِلْمِ.

الشرح:

هذا الأصل الخامس والأخير، قال: «طَرِيقُهُمْ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ»، فذكر أن من تمام هذا الأصل طريقهم، يقول: «وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، يَعْتَقِدُونَ وَيَلْتَزِمُونَ أَنْ لا طَرِيقَ إِلَى اللهِ وَإِلَى كَرَامَتِهِ إِلا بِالْعِلْمِ النَّافِعِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ»، العلم النافع هو علم الديانة، علم الشريعة، علم الكتاب والسنة، هذا هو العلم الصحيح، خلافًا لأهل السلوك، ولأهل التصور، الذين يجعلون العلوم علومًا سلوكية أو علومًا قلبية - كما يدعون -، ويدعون أن علومهم

مما يُفتح على قلوبهم، ومما يستظهرونه ويظنونه، وهذا جهل في الحقيقة، العلم الشرعي هو العلم بكتاب الله وبسنة نبيه ﷺ، ولذلك يقول بعض الشعراء:

كُلُّ العُلُومِ سِوى القُرْآنِ مَشْغَلَةٌ ... إلاَّ الحَدِيثَ وَعِلْمَ الفِقْهِ فِي الدِّينِ

العلمُ ما كانَ فيه قالَ حدثنا ... وَمَا سِوى ذَاكَ وَسْوَاسُ الشَّيَاطِينِ[1]

هذا هو العلم النافع، ويقول الشاعر أيضًا:

الْعِلَمُ قَالَ اللهُ قَالَ رَسُولُهُ ... قَالَ الصَّحَابَةُ لَيْسَ خلف فيه

مَا الْعِلْمُ نصبك لِلْخِلافِ سَفَاهَةً ... بَيْنَ الرسول وَبَيْنَ رَأي سفيه

كلا ولا نصب الخلافة جهالة ... بين النصوص وبين رأى فقيه[2]

هذا هو العلم الصحيح، علم الكتاب والسنة، وكذلك وسائلها: معرفة اللغة، ومعرفة طرق التكلم فيها، ونحو ذلك.

فأهل السنة يلتزمون أنه ليس لله طريق، ولا إلى كرامته إلا طريق العلم النافع، والعمل الصالح، بخلاف أهل الطرق، الذين لهم طرق كما يعبرون أنها طرق قلبية، وقد ناقشهم العلماء، كما في كتاب ابن القيم -رحمه الله- (طريق الهجرتين)، وتعرض لذلك في كتابه (مدارج السالكين)، فالعلم النافع حقيقة «مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ مِنْ كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ»، فإنه هو الذي بلغ القرآن، وعلمه لأمته، وبينه لهم، إذا قرؤوا عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعملوا بما فيها، فتعلموا القرآن والعلم والعمل جميعًا[3]، وكذلك سنته ﷺ التي بين بها القرآن، والتي وضح بها الأحكام، فهذا هو العلم النافع.

---

(١) هذه الأبيات للإمام الشافعي رحمه الله، انظر: ديوان الإمام الشافعي (١/ ١١٦).

(٢) ذكر الأبيات ابن القيم انظر: قصيدة ابن القيم شرح ابن عيسى (١/ ١٢٣).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٤١٠)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٤٦٠)، وابن جرير الطبري (١/ ٦٠).

قوله- رَحِمَهُ اللَّهُ- : «فَيَجْتَهِدُونَ فِي مَعْرِفَةِ مَعَانِيهَا، وَالتَّفَقُّهِ فِيهَا، أُصُولاً وَفُرُوعًا»، فأهل السنة يجتهدون في معرفة معاني الكتاب والسنة، تعلم الأحكام منها، واستنباطها في أهم الفوائد، والتفقه فيها، وقد ثبت في الصحيحن قول الرسول ﷺ: (مَنْ يُرِد الله بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّينِ)[1]، فالتفقه: التعقل، والتأمل، والاستنباط، والاستدلال في أصولها وفروعها؛ وذلك لأن لها أصول التي هي رؤوس الأدلة، ولها فروع التي هي فروع المسائل، التي تُسمى فروعاً، يقولون: القرآن أصل، ويؤخذ منه فروع، وهي المسائل العملية، والسنة أيضًا أصل، ولها فروع، وهي ما فيها من المسائل.

ثم يقول -رَحِمَهُ اللَّهُ -: «وَيَسْلُكُونَ جَمِيعَ طُرُقِ الدِّلالاتِ فِيهَا: دِلالَةِ الْمُطَابَقَةِ، وَدِلالَةَ التَّضَمُّنِ، وَدِلالَةِ الالْتِزَامِ»، وهذا يقع في أسماء الله تعالى، أن كل اسم له ثلاثة دلالات، فاسم الرحمن:

يدل على ذات الله تعالى بالمطابقة، فلا ينطبق إلا على ذات الله تبارك وتعالى، فهذه دلالة مطابقة.

ثم تستنبط منه صفة الرحمة، فدلالته على الرحمة دلالة تضمن، يعني: أنه في ضمنه صفة الرحمة.

ثم يدل على بقية الصفات دلالة التزام، نقول: إذا كان رحمانًا وراحمًا استلزم ذلك أن يكون غفورًا، واستلزم أن يكون غنيًا، وأن يكون قويًا، وأن يكون قادرًا، وأن يكون سميعًا بصيرًا ونحو ذلك.

فالدلالات: دلالة المطابقة، ودلالة التضمن، ودلالة الالتزام، ويكون ذلك أيضًا في الآيات والأحاديث، فمثلاً: قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾

(١) أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية بن أبي سفيان ﷺ.

[التوبة: ١٠٠]، تدل على فضل الصحابة ﵃ دلالة مطابقة، وتدل على وجوب محبتهم، دلالة تضمن، وأن من أحبهم اتبعهم، أي: يلزمه أن يكون متبعًا لهم، وهذه دلالة الالتزام.

وكذلك إذا أمرنا الله تعالى بأداء الصلوات، نقول: آيات الصلوات لها ثلاثة دلالات: دلالة على أننا يلزم أن نؤدي الصلوات، ثم دلالة تضمن أن الصلوات نفعل فيها هذه العبادة: قيامًا، وركوعًا، وسجودًا، وذكرًا، وقراءة، ودعاء، وطمأنينة، ثم دلالة الالتزام أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وما أشبه ذلك.

يقول الشيخ -﵀-: «وَيَبْذُلُونَ قُوَاهُمْ فِي إِدْرَاكِ ذَلِكَ بِحَسَبِ مَا أَعْطَاهُمُ اللهُ»، أي: يبذلون جهودهم في إدراك هذه الدلالات بحسب ما أعطاهم الله، لأن الله فتح على عباده، فمنهم من تبحر في هذه العلوم، واستنبط منها أشياء كثيرة، ومنهم من دون ذلك، ولكن عليهم أن يبذلوا جهودهم، في الحرص على إدراك هذه الدلالات.

يقول -﵀-: «وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ هَذِهِ الْعُلُومُ النَّافِعَةُ»، أي: علم الكتاب والسنة، هي العلوم النافعة، التي من عمل بها، فإنه من أهل السعادة، ومن عدل عنها، فإنه من أهل الشقاوة، كذلك «وَمَا تَفَرَّعَ عَلَيْهَا مِنْ أَقْيِسَةٍ صَحِيحَةٍ وَمُنَاسَبَاتٍ حُكْمِيَّةٍ»، يعني: قد يقولون: إن الآيات لا تدل على جميع الأحكام، وكذلك الأحاديث فيُحتاج إلى ما يُلحق بها، مما يُسمى قياسًا صحيحًا، وهو ما توسع الفقهاء فيه، من إلحاق المسائل بعضها ببعض، فالمسائل التي لم يذكر فيها نص، يلحقونها بما يناسبها، إذا كانت هناك مناسبات حكمية،

وهـذا مـا يفتحـه الله تعـالى علـى العلمـاء الربـانيين، الـذين يعرفـون الأحكـام، فيلحقون ما هو مسكوت عنه بما هو منصوص عليه.

ثم يقول -رَحِمَهُ اللَّهُ-: «وَكُلُّ عِلْـمٍ أَعَـانَ عَلَـى ذَلِكَ، أَوْ وَازَرَهُ أَوْ تَرَتَّـبَ عَلَيْـهِ فَإِنَّهُ عِلْـمٌ شَرْعِيٌّ»، أي: كـل العلـوم الـتي تعـين علـى ذلـك حتـى علـم اللغـة، وعلم القواعد العربية، ومعرفة معاني لغة العرب، هذه أيضًا تعين علـى العلـوم النافعة، وعلى الأقيسة والمناسبات ونحو ذلك، أو تؤازر عليه، أو يترتـب عليهـا معرفة الفوائد، ومعرفة الأحكام واستنباطها، فنقول: كلها شرعية.

ثم قال -رَحِمَهُ اللَّهُ-: «كَمَا أَنَّ مَـا ضَـادَّهُ وَنَاقَـضَهُ فَهُـوَ عِلْـمٌ بَاطِـلٌ»، أي: كـل شيء يناقض الشرع، ويناقض الأدلة، ويبعد عنهـا، ويحـرم مـن عكـف عليهـا، نقـول: إن علـومهم علـوم باطلـة، فعلـوم أهـل الفلـسفة، وعلـوم مـا يـسمون بالباطنيين، وأكثر علوم أهل السلوك، هذه كلها تضاد العلم الـشرعي، فتكـون باطلة، «فَهَذَا طَرِيقَهُم فِي الْعِلْمِ»، أي: فهذه طريقة أهل السنة في العلم.

وَأَمَّا طَرِيقُهُمْ فِي الْعَمَلِ: فَإِنَّهُمْ يَتَقَرَّبُونَ إِلَى اللهِ تَعَالَى بِالتَّصْدِيقِ، وَالاعْتِرَافِ التَّامِ بِعَقَائِدِ الإِيمَانِ، الَّتِي هِيَ أَصْلُ الْعِبَادَاتِ وَأَسَاسُهَا، ثُمَّ يَتَقَرَّبُونَ لَهُ بِأَدَاءِ فَرَائِضِ اللهِ، الْمُتَعَلِّقَةِ بِحَقِّهِ، وَحُقُوقِ عِبَادِهِ، مَعَ الإِكْثَارِ مِنَ النَّوَافِلِ، وَبِتَرْكِ الْمُحَرَّمَاتِ وَالْمَنْهِيَّاتِ، تَعَبُّدًا للهِ تَعَالَى.

وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى لا يَقْبَلُ إلا كُلَّ عَمَلٍ خَالِصٍ لِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، مَسْلُوكًا فِيهِ طَرِيقَ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ، وَيَسْتَعِينُونَ باللهِ تَعَالَى فِي سُلُوكِ هَذِهِ الطُّرُقِ النَّافِعَةِ، الَّتِي هِيَ الْعِلْمُ النَّافِعُ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ الْمُوصِلُ إِلَى كُلِّ خَيْرٍ وَفَلاحٍ، وَسَعَادَةٍ عَاجِلَةٍ وَآجِلَةٍ.

وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا

الشرح:

قال - رَحِمَهُ اللهُ -: «وَأَمَّا طَرِيقُهُمْ فِي الْعَمَلِ»، بعدما يعلمون فإنهم يعملون، «فَإِنَّهُمْ يَتَقَرَّبُونَ إِلَى اللهِ تَعَالَى بِالتَّصْدِيقِ، وَالاعْتِرَافِ التَّامِ بِعَقَائِدِ الإِيمَانِ، الَّتِي هِيَ أَصْلُ الْعِبَادَاتِ وَأَسَاسُهَا»، يعني: أن أول شيء يصدقون بالأدلة، فيصدقون بالآيات والأحاديث، ويجعلون ذلك طاعة وقربة إلى الله، ويعترفون بعقائد الإيمان، وهي الأصول الستة: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، فإن من اعتقدها، نتج عن ذلك أن يقوم بالعبادات؛ لأن العلم والعقيدة لها ثمرة، ولها أساس، ولها علامات، وهي: العمل، فإذا رأيت الذي يكثر من الأعمال الصالحة، عرفت أن عقيدته سليمة، وإذا رأيت الذي يترك الأعمال الصالحة، ويفعل السيئات،

عرفت أن عقيدته سيئة، فالعقائدة الإيمانية أصل العبادات وأساسها، فأهل السنة يتقربون إلى الله تعالى بالتصديق بهذه العقائد الإيمانية.

قوله -رَحِمَهُ اللَّهُ-: «ثُمَّ يَتَقَرَّبُونَ لَهُ بِأَداءِ فَرَائِضِ اللهِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِحَقِّهِ، وَحُقُوقِ عِبَادِهِ، مَعَ الإِكْثَارِ مِنَ النَّوَافِلِ»، أي: هذه هي النتيجة، إذا كانوا يتقربون بالتصديق والاعتراف، فلذلك نتيجة، أنهم يعملون، ويؤدون فرائض الله التي تتعلق بحقوقه، كالعبادات ونحوها، من ذكر الله تعالى، ودعائه، وتلاوة كتابه، ومحبته، والخوف منه، وخشيته، ومحبة عبادته، والاستعانة به، والتوكل عليه، فهذه متعلقة بحقه، وكذلك حقوق عباده: محبة عباده الصالحين، والاقتداء بهم، والتعلم منهم، وتعليمهم، هذه هي الحقوق التي هي الفرائض: كالصلوات، وأركان الإسلام، ونحوها، وكذلك النوافل يحرصون على أن يتقربوا بالنوافل الزائدة على الفرائض، فهناك صلوات نوافل، وصدقات نوافل، وحج وعمرة نوافل، وجهاد نوافل، وصيام نوافل، هذا مما يتقربون به، ولهم أجر على ذلك، على الفرائض والنوافل.

قوله -رَحِمَهُ اللَّهُ-: «وَيَتْرُكِ الْمُحَرَّمَاتِ وَالْمَنْهِيَّاتِ»، أي: يتقربون بترك المحرمات المنهيات، «تَعَبُّدًا للهِ تَعَالَى»، ولهم أجر أيضًا على ذلك؛ لأن النفوس قد تميل إلى الحرام، فإذا جاهد الإنسان نفسه ومنعها، وقال: إن هذا حرام قد منع الله تعالى منها، وكسر نفسه وعصاها إذا اندفعت إلى شيء من المحرمات: من المأكولات، والمناكح، والمشارب، والمكاسب، ونحو ذلك، فإن هذا عبادة، يثيب الله تعالى على ترك المحرمات، كما يثيب على فعل الفرائض والطاعات.

ثم يقول-رَحِمَهُ اللَّهُ-: «وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى لا يَقْبَلُ إلا كُلَّ عَمَلٍ خَالِصٍ لِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ»، هذا أيضًا من طريقتهم الإخلاص، الذي أمر الله به بقوله:

﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢- ٣]، فلا يقبل إلا ما أريد به وجهه، فالعمل الذي يكون فيه شرك أو رياء، لا يقبله؛ فلأجل ذلك يحرصون على الإخلاص، فلا يقبل الله إلا كل عمل خالص لوجهه، «مَسْلُوكًا فِيهِ طَرِيقَ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ» ﷺ، وهو إرادة وجه الله تعالى، فهذان شرطان:

الشرط الأول: الإخلاص.

الشرط الثاني: المتابعة، وهو معنى قوله ﷺ: **(مَسْلُوكًا فِيهِ طَرِيقَ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ).**

هذان شرطان للعبادة، ذكرهما الصنعاني في بائيته، يقول:

فَلِلْعَمَلِ الإِخْلاصِ شرطٌ إِذَا أتى وَقَدْ وَافَقَتْهُ سُنَّةٌ وَكِتَابٌ

يقول الشيخ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: «وَيَسْتَعِينُونَ بِاللهِ تَعَالَى فِي سُلُوكِ هَذِهِ الطُّرُقِ النَّافِعَةِ»؛ لأن الله تعالى أمر بالاستعانة به، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، يعني: أننا بحاجة إلى إعانتك لنا في العبادة، فيقولون: يا ربنا أعنا، فلا غنى لنا عن مساعدتك لنا في سلوك هذه الطرق النافعة، وفسرها في قوله: «الْعِلْمُ النَّافِعُ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ»، فهذه الطرق النافعة «الْمُوصِلُ إِلَى كُلِّ خَيْرٍ وَفَلاحٍ وَسَعَادَةٍ عَاجِلَةٍ وَآجِلَةٍ»، أي: من سلك هذه الطرق وعمل بها قولاً وعملاً، أوصله الله إلى كل خير وفلاح، وجعله من المفلحين، ومن أهل السعادة في دنياه، يعيش عيشة هنيئة، ويعيش سعيدًا في حياته، وكذلك السعادة في الآخرة، والله أعلم وصلى الله على محمد وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

الخاتمـــة

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن الشيخ عبدالرحمن بن ناصر بن سعدي - رحمه الله - من أهل العلم الصحيح، ومن أهل العقائد السليمة، ومن أهل الاستقامة على ذلك، وقد بذل وقته - رحمه الله - في تعلم العلم، ثم في تعليمه، ثم في كتابته، فله كتب في الأصول والعقائد ونحو ذلك، وله كتب ومؤلفات في العقائد، متنوعة مختصرة وموسعة، ومن جملة ما كتبه مما يتعلق بالعقائد، هذا المؤلف الذي اسمه (أصول العقائد الدينية)، وهو نبذة مختصرة، ألفه في آخر حياته، ووعد أنه إذا بسط الله في أجله أن يشرحه ويوسعه، ولكن لم يتيسر له ذلك، وقد طُبعت الرسالة وانتشرت مع اختصارها، وهي نافعة ومفيدة لأهميتها، ولم يشرحها أحد فيما أتذكر، ويمكن أنه شرحها بعض تلاميذه كالشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله، أو من تتلمذ عليه، وحيث لم ينتشر لها شروح فقد طلب مني أخونا الشيخ الدكتور/ طارق بن محمد الخويطر وفقه الله أن أقوم بشرحها، وكنت غالبًا أشرحها في الطريق إذا ركبت معه سويًا في سيارته إلى بعض الأماكن، لإلقاء محاضرة، أو نحوها، فيقرأ نبذة من المتن، وأتولى شرحها بحسب ما يسر الله وفتح علي، ولم أتمكن أن أطالع شيئًا من الكتب الموسعة والمتعلقة بالعقيدة،

وإنما أعتمد على ما أفهمه من السياق، وما أتذكره من الأدلة التي توضح ما في هذه العقيدة من المسائل، ومن الخلافات، وما أشبهها، ولم أتوسع في ذكر الخلافات مع المبتدعة أيًا كان؛ لأن التوسع معهم، وذكر مناقشاتهم، والجدال معهم، قد يشغل البال، وقد يشغل القارئ، وقد يكون فيه شيء من إثارة الشبهات، ونشر تلك الشبهات والملاحظات، فاقتصرت على شرح ذلك المتن جملة جملة، سواء ما يتعلق بأسماء الله تعالى وصفاته، والتي الخلاف فيها قديم مع المعتزلة، والأشعرية، والماتريدية، ونحوهم، أو ما يتعلق بأركان الإيمان: الإيمان بالملائكة، والكتاب، والنبيين، والإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالقدر ونحو ذلك، وهو ما مشى عليه شيخ الإسلام في الواسطية، وغيره من العلماء الذين كتبوا في العقيدة، كابن القيم، والإمام السفاريني في شرحه لعقيدته، وفي شرحه للحائية، وكذلك علماء الدعوة الذين شرحوا كتب التوحيد، وما يتعلق بذلك، وتوسعوا في ذلك، جزاهم الله خيرًا، وأثابهم رضاه، وتقبل منهم سعيهم، وأثابهم على جهود بذلوها لطلبة العلم، حتى يقربوا للطالب ما يمكن أن يستفيد منه.

وكذلك ما يتعلق بالعمل، وذلك لأن الخلاف مع المرجئة في مسمى الإيمان، وفي مسمى العمل، وحيث إن العلماء قد أنكروا قول المرجئة، وأطالوا في ذمهم كما فعل الخلال رحمه الله في كتاب (السنة)، حيث خرَّج أحاديث وكلامًا وآثارًا، لعلماء الصحابة رضي الله عنهم، والتابعين، والأئمة، في التحذير الشديد من المرجئة، وفيه نقض أقوالهم، فالشيخ ابن سعدي -رحمه الله- ذكر الإيمان، وذكر تعريفه،

وذكر ما يترتب عليه، إذا اعتقده العبد وأدى حقوقه، فتبعته في هذه الملاحظات، وفي هذه الأشياء التي تترتب عليه وشرحت ذلك، بحسب ما اتسع له الوقت، وحيث إن الشيخ الدكتور/ طارق بن محمد الخويطر وفقه الله، هو الذي طلب ذلك، فقد أذنت له في تفريغ الأشرطة التي فيها هذا الشرح، ثم بخدمة هذا الشرح بتصحيحه، وحذف ما هو مستغنى عنه مما هو مكرر أو مستطرد، والتعليق عليه بتخريج حديث، أو ترقيم آيات، أو نحو ذلك، وفيه الأهلية والكفاية، وله الحق في الإشراف على ذلك، وفي طبعه، وفي نشره على ما يراه، هذا الذي أحببت أن أنبه عليه، رجاء أن الله تعالى ينفع بهذا الشرح كما نفع بالأصل، الذي هو عقيدة الشيخ ابن سعدي رحمه الله، مع العلم أن شرحنا عليه لابد أن يعتريه نقص وخلل، ولكن ما لا يُدرك كله، لا يُترك جله، ولنعلم أن هناك شروحًا لكثير من العقائد وافية بالمقصود، ولكن من باب المساهمة، حيث إن هذه العقيدة لها أهميتها، وقد يكون فيها فوائد، لم يتطرق إليها كثير من الذين كتبوا في العقائد، فلعل في نشرها وقراءتها وشرحها ما تطمئن إليه النفس، وما يكون سببًا ووسيلة في الانتفاع بها، ولفهم مقاصدها، بحيث يفهمها المبتدئ، ويفهمها العامي بعد أن يقرأ ما قمنا به من الشرح والتوضيح لها؛ لأن الكلام المجمل قد لا يفهمه إلا أهل الفهم وأهل الإدراك، بخلاف ما إذا توسع فيه ووضحت معانيه، ونسأل الله أن يجزي الشيخ/ طارق ابن محمد الخويطر أحسن الجزاء، وأن يرحم الشيخ عبدالرحمن بن سعدي، وأن يتغمده برحمته، على ما بذل من العلم النافع، الذي سجله

وكتبه، لينفع به الأمة في جميع ما يتعلق بالدين، وأن ينفع بهذه الرسالة، وأن يعفو عنا ويرحمنا، وأن يغفر لنا ما وقعنا فيه من خطأ أو زلل، إنه على كل شيء قدير، والله أعلم وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبه

عبدالله بن عبدالرحمن بن عبدالله الجبرين

١٤٢٩/٧/١٥هـ

الفهـــرس